خُمورجي يروِي التاريخ

مجموعة قصصية

محمود عبد الدايم

خمُورجي يروِي التاريخ
المؤلف: محمود عبد الدايم

تصميم الغلاف : محمد أبوالعينين
مراجعة لغوية: إسلام غزير

الطبعة الأولي : يناير 2018
رقم الإيداع : 27881 / 2017
الترقيم الدولي : 978-977-769-201-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : 23963002(02)

إهـــــــــــداء

إلـى..
أحلام اليقظة..
الفرص الضائعة..
والسيناريوهات الخيالية.
بكم انتصرنا.. ولا نزال علي قيد الحياة

خمُورجي يروي التاريخ

في الخلفية صوتُ المذيعة يعتذر عن تراجع الاهتمام بتغطية أخبار المعارك العسكرية التي تديرها القوات المسلحة ضد الإرهابيين.. صوتها كاذب.. لم يأتِ بجديد.. باختصار لم يُحدِث تغييرًا في موقفي من الأمر.. ورغم هذا تابعْتُ فقرتَها بنصف عين، وببقية نظري تابعتها تتجول في المكان.. دارت 3 دورات كاملة.. أمسكتْ بانفعالٍ مصطنع هاتفَها المحمول لم تضعه على أذنيها.. زفرتْ بإتقان عندما لم يأتِها ردٌّ من الجانب الآخر.. أو هكذا خُيِّلَ لي الأمر...!

على الطاولة المقابلة كان هناك من يُتابع أمر «التليفون المصطنع» مثلي.. لكنه -وللصراحة كان أكثرَ جراءةً- منحها في دورتها الأولى نظرةً مُتأنِّيَةً، وفي الثانية تمْتَمَ بكلمات معدودة، منحتْهُ -على إثرها- ابتسامة مطمئنة.. وعندما لم يُجبْ أحدٌ على

هاتفِها، قبلتْ دعوته للجلوس على طاولته، في انتظار من لن يأتي.

«الوضع هناك متأزم جدًا... حالة الاستعداد وصلت إلى الدرجة القصوى.. البلد محتاجة نقف جنبها».

التقطت جملة المذيعة الأخيرة قبل أن تعلن خروجها إلى فاصل إعلاني، وتطالبنا بانتظار فقرة ساخنة حيث تظهر على الشاشة، ولأول مرة -هذا ما أكدتْ وشدَّدتْ عليه- الممثلة المتهمة بإدارة شبكة دعارة، بعد حصولها على حكم درجة أولى بالبراءة.

لا تستهويني الفقرات الإعلانية.. دائما.. عُدْتُ من جديد إلى فتاة الطاولة المجاورة.. وجدتها وقد أمسكتْ سيجارتها بأنوثة كاملة.. ضغطتْ عليها قليلًا.. متوترةً كانتْ، ثوانٍ معدودات، وغطت سحابة الدخان وجهها، أرادت أن تختفي عن الأنظار، تركت هاتفها بإهمال على الطاولة، وأشارت لأذنها، فهم رجل الطاولة إشارتها.. فقال:

- يا إخوانا .. صوت التليفزيون .. عاااااالي.

ضغط على حروف كلماته، أراد أن يُثبتَ رجولتَه أمامها، لم يتغير المشهد كثيرًا، ألقتْ سيجارتها في المنفضة الخشبية.. أعادت ظهرها قليلًا إلى الوراء، تابع رجلُها الجديد تراجعَها المثير..

وبدوري تابعتُ نظراته إلى صدرها.. يشتهيها.. هذا كلُّ ما في الأمر..!

سمراء بدرجة كبيرة كانتْ.. لا تمتلك من الجمال إلا ما يُؤهلها للجلوس هُنا، تدرك هي إمكانياتها، ويدرك هو أنها تدرك هذا، مَالَ قليلًا عليها، ألصقَ شفتيْه الزرقاوينِ بِفعل التدخين، هَمَسَ في أُذنِها، متعمدًا أن يرتفع صوتُه.. أخبرها أن شفتيْها أجمل دون الروج «الأحمر الفاقع».. التقطتْ جملتَه.. كُنتُ أتوقعها لكن ليس منه.. أعجبني ذوقُه.. بالفعل.. كان لونهما منفرًا.. فتاة الطاولة استأذنتْ بعد ملاحظته تلك، تركتْ حقيبتَها مكانها وأمسكت بهاتفِها واتجهتْ إلى الحمام.

عشر دقائق كاملة استغرقتْها في الغياب.. الفقرة الإعلانية انتهتْ.. المذيعة أعادتْ الجُمَلَ التي سبَقَ وأن ألقَتْها على مسامعنا قبل الفاصل.. الكادر يقترب كثيرًا من وجه النجمة العائدة إلى الشاشة بعد قضاء سبعة أيام في «التخشيبة».. لم تتغير كثيرًا، ربما كمية «الميك أب» التي كانت تستخدمها هي التي تغيرتْ فقط.. كانت قليلة مقارنة بما كانت تظهر به في أفلامها السينمائية التي تظهر فيها دائمًا في دور «العاهرة»..!

عادت إلى الطاولة.. هاتفها المحمول برز من جيب بنطلونها

الخلفي.. لاحظتُ وضعه عندما قررت إعطائي ظهرها لمواجهة رجلها.. من نوعية رخيصة كان.. رناته الرتيبة المزعجة أكدتْ الأمر.. تجاهلتْ ثلاثة اتصالات، وفي الرابع ضغطَتْ -بِكُرْهٍ- على زر «رفض المكالمة»... مكانُها الجديد أتاح لرجل الطاولة مواجهتها.. لكنَّه حرمَه من ملامسة أقدامها، مثلما كان يفعل في الدقائق التي سبقتْ الفقرة الإعلانية.

شرخٌ بارزٌ في منتصف حذائها خطفني من متابعة دموع «النجمة» على الشاشة التي لم ألتقط من بين كلماتها الباكية سوى كلمة «والله العظيم.. بريئة».. ليواجهني حذاء السمراء التي ولَّتْني ظهرَها.. اهتزازاتُ قَدمَيْها السريعة المتتالية كشفت لي مساحة «القطع» كاملةً، ويبدو أن الهواء تسرَّبَ إلى باطن قدمها لأنها قفزتْ سريعًا من فوق مقعدِها، ألقتْ نظرة خاطفة على طاولتي.. وضبطتني متلبسًا بمتابعة مسار «شرخها» البارز لمن يهتم بالتفاصيل الصغيرة مثلي.. عقدتْ حاجبيْها.. التقتْ أعينُنا.. شتمتْني بنظرة.. فردَدْتُ لها الشتيمة ألفًا.. تأففت من تحدي النظرات، فعادت سيرتها الأولى لمواجهة «رجل الطاولة».

عُدْتُ إلى متابعة حوار المذيعة والنجمة العائدة من جديد. وجدتُها تحولتْ إلى خبيرة سياسية.. الماكرة أدخلت «السياسة

والدعارة» في جملة مفيدة.. تحدثت عن الذين لا يريدون صعود نجمها في السماء، كشفت «أوردرات الخليج» والفنانات اللاتي تحملهنَّ طائرة أمراء النفط.. لكن.. عندما أعلنت المذيعة دخول شخصية فنية بارزة على الخط في مداخلة مفاجئة ظهرتْ نتيجتُها على وجه النجمة البريئة، انتابتها نوبة بكاء شديدة، دفعت المذيعة لأن تطلب من المخرج بشكلٍ متعجلٍ الخروجَ إلى«فاصل إعلاني مفاجئ».

الفاصل المباغت أعادني لحدود طاولتي من جديد.. قضيتُ -حتى الآن- على ثلاث زجاجات، وما تزال رأسي بين أكتافي.. لا أشعر بالخدر يتسرب إلى قدمي.. ما زلت أعرف أين يدي اليُمنى.. واليسرى ما تزال قادرةً على حمْلِ السيجارة ونفضِها.. ولساني صامتًا.. كما عهدته طوال ساعات النهار المملة الطويلة.

اقتربتْ السمراء من رجل الطاولة أكثر.. لمحتْ يده تتسرب تتحرك باتجاه فخذِها.. لا إراديا نقلت راداري إلى شفتيها.. لمحتُها تعضُّ الشفّة السُّفلى بألم.. تيقَّنتُ أنَّها من النوع الذي لا يستلذ بالتحرش.. لكنها لم تبعد يده العابثة، بعدما أدركتْ أن «خيطه الجنسي» لن يمتدَّ لما هو أبعد من تلك المنطقة.. أشارتْ إلى العامل.. طلبت زجاجة «ويسكي».. يبدو أن خبرتها في

تلك المنطقة ضحلة، كأنوثتها.. طلبت نوعًا شعبيًا.. طريقة وضعها الثلج في الكأس استفزتني وفضحتْها.. في العادة، أحب «الويسكي» دون إضافات.. هكذا يكون أجمل وأكثر فائدة.

انشغلتُ في الدقائق التالية بطريقة تعاملها مع الزجاجة الشعبية... قضتْ عليها في أقل من ثلاثين دقيقة.. تابعتُ التغييرات التي صاحبتْ كؤوسها المتتالية.. داعبتْ -بدورها- فخذ رجل الطاولة.. ثم أزاحت يدها مع الكأس السادسة.. أشعلتْ السيجارة التاسعة وتعمدتْ أن تضع ولاعتها في كفه بعد أن تركتها مشتعلة لثوانٍ عدة.. تألم الرجل.. تعامل مع حريقها كونه دعوة لمزيدٍ من التحرش.. مرَّر كفَّه على ظهرِها. في الكأس السادس، ضغطتْ بظهرها على يده، ليسحبها بقوة، وقد تملكه الغضب.. في السابع تأففتْ.. ارتفع صوتُها قليلًا، التقطت بين كلماتها أرقامًا تُشير إلى تكلفة الليلة.. رخصية كانت.. وبخيلًا كان هو بدوره.. لم يوافق على المئة جنيه، فعلقتْ على الأمر بصوت من أنفِها، ما كنتُ أظنها تُتقنه، وأكملتْ قائلة:

«ليه .. كلبة ولاقطها م الشارع.. بلاها.. وأديك أخدت بتمن الويسكي تحسيس».

الطاولات المجاورة التفتت إليهما أخيرًا.. أصبح الأمرُ قريبَ

الشبهِ بـ«مؤتمر صحفي».. دخول رجل الطاولة مرحلة السكر، منعه من متابعة الأعين التي اغتصبتْ منطقة نفوذه.. فقال بصوتٍ غاضبٍ:

«وحياة أمك.. ده أنا ست ستك تتمناني.. شايفة دي».

أشار إلى النجمة التي يبدو أنها كسبت جولة قطع الطريق على الشخصية البارزة التي أرادت «المداخلة» .. واستمرت في إلقاء الاتهامات على «بنت إيناس.. وابن شفيقة.. ووووو».

أعادتني السمراء، داكنة البشرة إلى المكان من جديد.. عندما ارتفع صوتُها:

«في إيه.. يبقى على مرة.. لو قِدِرْت تعمل حاجة».

أمسكت بخصلات نافرة من حجابها، وهي تُردد قسمَها... والمذيعة على الجانب الآخر تتحرك من مكانها لِتُعطي ضيفتَها «طبطبة» على الظهر.. وتُطالب فريق إعدادِها بإحضار مزيدٍ من المناديل الورقية وكوبِ ماءٍ جديد، بعدما كسرت الضيفة ما كان أمامَها في لحظةِ دفاعٍ عن شرفِها.

ثوانٍ عدة.. تابعتُ المذيعة تُهدِّئُ من روع النجمة المنهارة.. تُطالبها بالصبر.. وانتظار كلمة العدل.. ولم تنسَ في خضم المشهد الحزين أن تُؤكد على أنَّ «النجمة محتاجة وقوفنا جنبها..»!

خلال تلك الثواني لمحتُ طيف السمراء يغادر الطاولة المجاورة مترنحًا.. لعنات عدة لاحقتها من فم رجل الطاولة الذي تمكن منه الكحول.. ارتكنتْ إلى الزاوية المواجهة لدورة مياه الرجال.. أفرغتْ معدتَها.. أخرجتْ هاتفَها من الجيب الخلفي.. وأجابت دون تردد:

- لا.. هاتأخَّر النهارده كماااااان.

عادتْ إلى الطاولة من جديد.. لمحتُها تحاول إزالة بقية «الروج» بكُمّ بلوزتِها .. بينما تنهي المذيعة حلقتها بدمعةٍ، أصرَّتْ على أن تُظهرها قبل أن يُواجهنا تتر البرنامج الذي توقَّفَ عند اسم المُعِدِّ ثلاثَ ثوانٍ.. وتركنا نتأمل أحرف اسم المخرج لأكثر من عشر ثوانٍ..!

طفل الثدي الميت

عرفتُها في واحدة من الندواتِ الليليَّة التي أحضرُها لقتل وحش الغربة ومواجهة معركة «الإفلاس».. لم أُحبها يومًا، لكن غيابها يصيبني بالجنون.. لم تكن كأمي يومًا، ولم أطلبْ منها الزواج في أقصى لحظاتنا الرومانسية.. اتفقنا أن نكون ولا نكون.. نكون أحبةً ولا نقع فى فخِّ الزواج.. تجاوزنا مرحلة العادات والتقاليد بـ«الصمت»، وعندما حدثتُها عن أمي التزمتْ «الحياد»، وعقبتْ على الأمر بـ«وعد ثلاثي» خطته في ورقة صفراء، التقطتْها بأصابع يدها اليسرى وكتبت: (لن أُحبَّ القمرَ.. ولن أهِبَ أطفالي لشمس قريتك البعيدة.. ولن أكون يومًا مثل أمك).

أعدت تمرير لساني- للمرة المئة- على شفتي السفلى.. على غير العادة كانت ناعمة جدًا.. الملمس الحريري يرافقني منذ

السابعة صباحًا.. فتحتُ عينيَّ على شفتيها، التقطتُ شفتها العليا، وتركتُ لها السفلى أسيرةً في معركة القبلات الصباحية.

سنواتي الثلاثون لم تمنحني خبرةً جيدةً في التقبيل، التقمتُ شفتها، تذكرتُ أمي، ثديها الأيسر -هذا ما أكدته لي فيما بعد- كان المفضلَّ لشفتيَّ.. أبي يومها برَّر الأمرَ بأنني أتعامل بالعدل مع أمي، لا أريد استنفاد طاقتها في الرضاعة من الجانبين، أما السنوات التي تلتْ الأمر فقد كشفتْ لي أن أخي -الذي رحل بعد دقائق من وصوله الحياة- لم يخبرني بموعد رحيله، ولهذا تركتُ له الثدي الآخر، علَّه يعود يومًا لأمي جائعًا..!

(الموت كالحب الأول يتركنا أسرى ذكريات)..

في العاشرة من عمري عرفت حكاية أخي التوأم.. لحظة مارقة في ظهيرة يوم حار جدًا، تلبس فيها شيطان الذكريات روح أمي، أرخت جفونها -هكذا هي عندما تحزن أو تحكي- تمنح عيناها الواسعة راحةً مؤقتةً، قالتْ:

«لم أخبر والدك أن بطني تحمل طفلين، احتفظتُ بمكافأة ربنا لي وحدي.. أنانية أنا.. أعرف هذا جيدًا.. وبالمناسبة أحبه، تتبعتُ مسيرتَكُما داخل رَحمي منذ مَنحَكُما الرب نفخة من روحه.. أنت كنت الساكن دائمًا.. هو كان يكره صمتَكَ، دائمًا كنتُ أشعر به

يزعق فيك (اتحرك يا أخي).. اكتفيتَ أنتَ بالسكون في جانبي الأيمن، نبضاته دائمًا كانت الأعلى صوتًا، لكن سكونك كان يكسر دقائق نشاطه.. ربحت وجودي بجوارك من أول جولة؛ غاضبا كأبيك هو كان، كاذبًا كبقية عائلة أبيك.. وكنتَ أنتَ أنا.. اتخذتُ من الدنيا ركنًا قصيًّا وانتظرت لحظة الميلاد».

أمي.. أحبها عندما تحكي.. عندما تبكي، تلمع عيناها في لحظات الحزن.. ورثتُ منها الحزن، ولم تعلمني طريقة الحصول على العين اللامعة.

أصابعها ما تزال تتخلل شعر رأسي، وهي تكمل حكايتنا وتقول:

لحظات كثيرة لمتُ نفسي على انحيازها لك ضد أخيك.. في الشهر السابع بدأتَ تُعلن وجودك، ركلتَ بطني من جانبها الأيمن، تركتُ العائلة المتجمعة حول «كانون النار»، ركضتُ إلى غرفتي.. منحتُك مئة قبلة، وألف دعاء بالصحة والرحمة.. سعادتي بحركتك أنستني أخاك.. أسبوعٌ كاملٌ أتابع حركتك الفرحة.. لا أخفيك سرًا.. أنت يا حبة عيني جعلتني أستمتع بكشف بطني للقمر ليلة تمامه، وضعتُها في مواجهته، نذرتُك له، وتمنيتك شبيهًا به، وقلت لشمس شتاء قريتنا الدافئة: سأمنحك

الثاني راضية، شرط أن يكون دافئًا مثلك..!

قريبَ الشبه بأمي إلى حد التطابق كنتُ.. احترفتُ إخفاء الأسرار في السابعة.. تتبعت مسيرة القمر في الثامنة، وأدركتُ أنني لم أولد لأكون ولدًا طيبًا، مع أول صفعة أعطاني إياها أبي، عندما حاولتُ منعه من ضرب أمي -كعادته- وتقبّلتُ البقاء مربوطًا مكان حمار البيت، ليلة كاملة، حتى جاءت عمتي في الصباح؛ لتحلّني من مربط الحمار، وتمنع طلاق أمي الذي حلف عليها أبي بـ«التلاتة» بأن تحل مكاني إن لم تنم بجواره طوال تلك الليلة...!

عمتي عنّفتْه كثيرًا جدًا، هدَّدتْه بأن ميراثها -الذي تركته بين يديه- ستطالب به حال تكراره تلك الحادثة.. كانت تحبني، وأنا يومًا لم أبادلها حُبَّها بحبٍّ، فأمي أخبرتني أنها قهرتها في أسبوع زواجها الأول.. أنزلتها «الزريبة»؛ لتنظيفها في اليوم الثالث، وفي الرابع والخامس والسادس تكرر الأمر، وعندما طالبت العروس الجديدة بـ«وقت مستقطع» من التعب في اليوم السابع، قضتْ ليلتها تلك في بيت أبيها، بكلمة واحدة من عمتي همستها في أُذُنِ أبي اليمنى.. تهتم أمي بالتفاصيل.. وأنا أعيش داخل التفاصيل..!

لو كانت تعرف أمي أن القمر سارقٌ.. يسرقُ ضوءَه من الشمس، هل كانت ستعرِّي بطنَها.. تدعو لوليدها أن يكون مثلَه (الخالق الناطق).. لو كان الله منحَها سنواتٍ عدة، ورأت أقدام رواد الفضاء تدوس فوق جبهة «فارس أحلامها»، هل كانت ستظل مطالبة بأن يكون لها ابن «قمر 14»..؟!

وأنا على أبواب الخامسة عشرة رحلتْ أمي، ولم تأخذ في حسبانها أنني لا أتناول طعامي إلا بيدي اليسرى، وأنني أُفضلُ دائمًا الجانب الأيسر من الحياة.. رحلتْ أمي وهي لا تدرك أنني طفلها المهمل في الجانب المظلم من رحمِها.. رحلتْ أمي ولم أقل لها إن الأسبوع الذي تركتني فيه تعلمت الصبر والصمت أيضًا..!

شعرة بيضاء على جدار غرفة نوم الرئيس

في العام الثالث للزواج انقطع خيط الحديث.. رسائل متبادلة.. رتيبة.. تذكره بميعاد تتوقع أنه تجاهله.. تمنحه قائمة طلبات البيت.. وعندما تكون في أحسن حالتها.. تخبره أنها تحبه... في الغالب لا يرد.. يكتفي بأن ترى إشارة أنه طالع ما أرسلته.

الثانية عشرة.. يمرر مفتاحه في القفل.. يدخل.. جالسة هي دومًا منشغلة.. تنهي استعداداتها للنوم.. يمرر التحية بصوت محايد.. تردها إليه بنبرة معدنية.

عشر دقائق.. تتركه وحيدًا في الغرفة.. يبدل ملابسه في ستٍ منها.. ينظر للمرآة خمسا وخمسين ثانية.. ويُعدُّ ملابس يومه الجديد في ثلاث دقائق.. ويضع هاتفه المحمول على الشحن في الثواني الخمس.

روتين أَحبَّه هو.. باركتْ هي محبتَهُ تِلكَ بالاختفاء في الدقائق العشر.. العشاء لا يكون مهمًا إلا إن طلبه.. وإن لم يطلب بعد انتهائه من رحلته بين محطات الأخبار.. تمنحه كوب شاي نصف بارد.. تضع الماء على نارٍ هادئة في الحادية عشرة وخمسٍ وخمسينَ دقيقةً، الثانية عشرة وتسع دقائق تنتهي من إعداد المشروب.. الثانية وتسع عشرة دقيقة تضعه أمامه مرفقًا به جملة:

«ليلتك سعيدة».

- أووووف.

تخرج منه قبل أن تغلق باب غرفة النوم.. يقصد أن يسمعها الصوت.. تقصد أن تتجاهل زفرته الحادة.. تلقي نظرة على وجهه وتنام.

دقق النظر للمرة الثالثة في المرآة.. تأكد أنها شعرة بيضاء نبتت في غفلة منه على جانب ذقنه الأيسر... ملقاط الزوجة لم يفلح في إزالة آثار جريمة الزمن.. تحرك قليلًا في غرفته.. تنام زوجته في غرفة ثانية مذ جاءت بوليدها الثاني.. تنحنح قليلًا.. علَّها تستيقظ.. طرد فكرة الذهاب إليها.. التحدث معها عن شعرته البيضاء.. هي امرأة تُجيد إحصاء عدد السنوات.. تعترف بـ«زمن الشعر الأبيض».. هو على الجانب الآخر من الكون..

حياته دائمًا كانت في المربع صفر.. ولهذا لم يهتم يومًا بالمسائل الحسابية.. فصفره صفر في كل المعادلات.

الثالثة فجرًا.. لم تعقه الساعة المتأخرة من النزول.. المعادي هادئة نهارًا.. مميتة ليلًا.. جيب معطفه الممزق في الجانب الأيسر منحه لحظة سعادة.. قطعة حشيش تجاهلها طوال أسبوع بعد قرار «التبطيل».. انتحى ركنًا قصيًا.. وما هي إلا ستون ثانية.. وانعكست نيران سيجارته على وجهه.. تذكّر الشعرة البيضاء مع النفس الأول.. وفي الثاني الأزمة انقلبت لنكتة أضحكتْه.. في الثالث التقط هاتفه من جيبه الأيمن.. وحدثها:

– طبعا.. ما يرقد الليل مفتون.. لازم تكوني نايمة.

من الجانب الآخر أتاه الصوت ناعسًا بعض الشيء.. تعرفه هي لا يطلبها إلا في وقت الأزمة.. أزاحت يد رجُلِها القابضة على جسدها.. ارتدتْ على عجلٍ ملابسَها وأسرعتْ للحمام.. طلبت منه أن ينتظرها.. أفرغت معدتها.. «الترجيع» عادة يعيدها إلى توازنها.. دخلت تحت الدش.. تعرف هي أنه يحبها في أية حالة.. لكنها لم تقبل أن تحدثه يومًا وعلى جسدها بصمات رجلٍ آخر.. أنهت حمامها سريعًا.. أعادت طلبه.. لم يرد..!

كررت المحاولة.. لا تمل هي من مطاردته.. ولا ينفر هو من

حبها.. أجابها في المحاولة الرابعة، كان صوتُه يشير إلى وصوله لأعلى درجات الانتشاء..

– أُحبك.. أنتِ خطيئتي التي ستدخلني الجنة.

قالها وصمت..

بادلته الصمت صمتًا.. فأكمل:

– لو فاضية ممكن نتقابل.

نظرة خاطفة اصطدمت بجدار غرفة النوم.. وبابها المغلق.. التزمت الصمت.

أسند رأسه المتأرجح على سور المستشفى العسكري.

– عارفة أنا ساند راسي على أوضة نوم «أبو علاء».

صمتت .. فأكمل:

– أنا عملت ثورة وهو عمل ثروة.. تفتكري يبقى تعادل..؟!

لم يعطها فرصة لترد بصمتها المتوقع.. أجهش في البكاء.. نحيبه أيقظ فرد الحراسة في برج المراقبة.. ألقى إلى الأعلى بسيجارة.. ووضع يديه على فمه وأكمل نحيبه في صمت.

سبع أرواح

لماذا يجب أن أبقى؟.. واجهتُ نصف وجهي النائم بالسؤال هذا.. توقفت قليلًا قبل أن أُجيب.. عقارب الساعة تتحرك.. لمحتُ عقرب الثواني يلدغ الأرقام بغيظ.. ابتسمتُ لوهلة.. تذكرتُ أنها حذرتني يوم أعطتني الساعة تلك، من متابعة لدغات الثواني السريعة.. ونصحتْني بمرافقة العقرب الأكبر.. لدغته بطيئة، يمكن أن أهرب منها بأكثر من حيلة.. هززتُ رأسي.. طردتها ومعها عقاربها المملة.. ثم أعدتُ حزني لوجهي من جديد.. وقلت:

سأجيبك يا أنا على السؤال في صباح الغد.. فربما أكون بخيرٍ غدًا.. لكنني اليوم لا أظنني أمتلك أيَّة إجابات، سأكتفي بحصار الذاكرة حتى لا يهرب السؤال.. وتضيع الإجابة.. وأبدأ من جديد..!

لا شيء يمكن أن أفعله اليوم.. ذقني لا تستحق عناء حلاقتها.. سأتركها للغد هي الأخرى، ستكبر وستكون طوعًا لـ«موس الحلاقة»، أزيلها برفق.. وأمنح تجاعيدها دفعات ثلاث من كولونيا «3 خمسات» التي ورثْتُ محبتها من أمي.. غدًا سأحلق ذقني وأمنحها فرصة جديدة للنمو.. سأحلقها غدًا!

معدتي الخاوية لم تطلب الإفطار.. لم ترتعش الأمعاء معلنة عصيانها.. كُنتُ سأمنحها ساندوتش «مربى التين».. أفضلها مذ كنت طفلًا في السابعة.. الزجاجات الأربع التي قضيت عليها ليلة أمس أصابتني بـ«صداع الصباح»، ربما كوب ساخن جدًّا من «النيسكافيه»، يعيدني إلى منطقة الاتزان.. سأمهل رأسي خمس عشرة دقيقة، وإن لم يحدث جديد.. فلا بأس بالمشروب الصباحي.. لعلَّ وعسى.. يكون اليوم أفضل..!

الخيوط زادت اليوم.. منح نفسَه مساحة أكبر في الركن الذي تخليت عنه طوعًا ليبني بيته.. دخلنا سويًّا معركة «النفس الطويل».. منحته ثلاثة أيام في البداية.. كنت كريمًا معه.. وكان هو الآخر كريمًا مع نفسه.. بدأ بزاوية صغيرة جدًّا.. مدَّ خيوطَه في صمتٍ.. أبعدتُ عنه هواء المروحة.. أعطيته فرصة لـ«الاستقرار».. لم يهتز بيته طوال الأيام التالية.. للمرة الثانية

كنت كريمًا معه.. وللمرة الثانية كان كريمًا مع نفسه.. تمدد أكثر في الزاوية.. منح خيوطه سنتيمترًا آخر.. لا يزال يتمدد في الزاوية، إحساسه بالأمان والنجاة من هواء المروحة جعله يُسرِع الخطى.. غزل خُيوطًا جديدة.. تركْتُه يتوسع.. لا يدرك هو أنني بحركة واحدة سأنزل الستار على تاريخه، سأمحوه من الحياة.. لكن لا يهم.. يكفي أنني أمتلكه.. يكفي أنه لا يعرف.. يكفي أنني أدرك من البداية من الرابح في معركتنا الأبدية تلك.

التفاصيل منحت الصداع -هو الآخر- مساحة ليتمدد في رأسي.. أشعر بثقل في عيني اليمنى.. فـ«اليسرى» اعتدت منذ سنوات طويلة أن أجعلها «نصف مغمضة».. أبي كان يكره نظرتي تلك.. أمَّا أمي فظلَّتْ تدور وتغزل ثوب روايتها «مرات عمك حسدتك.. عينك حلوة.. وعينها مدورة.. نمت يوما بعينين جميلتين.. وصحوت اليوم التالي بعين ونصف.. ربنا يسامحها».

لم يسامح «ربنا» زوجة عمي.. أخذ نور عينيها.. بقيتْ سنواتٍ سبع تتخبط.. تتنقل بين أيدي بناتها.. وفي اليوم الأول من سنَتِها الثامنة.. ماتت.. ولا تزال عيني «نصف مغمضة».. هل عاتبَتْ الله عندما ذهبَتْ إليه فغفرَ لها وتركَني بـ«عاهتي»..!

«كركبة المطبخ».. أعلن عن وجـوده.. يبدأ يومه ببعثرة الأشياء.. سلة المهملات ساحة معركته الأولى.. يفض بكارتها في الساعة الأولى.. وفي الثانية يكتشف المكان الجديد الذي أضع فيه قطعة الجبن.. يلتقطها بحذر.. يهز ذيله بمرح طفولي.. تتحرك عيناه مسرعة.. يجري عائدًا بقطعة الجبن، واضعًا علامة جديدة في جُحره المنزوي خلف الثلاجة ليتأكد أنه ربح معركة جديدة معي.. لو منعت عنه الجبن.. لن يهز ذيله.. لن يخط علامة جديدة على حائط جحره.. لن يكون الرابح في معركته الصباحية.. ستنتهي الحكاية لو أصابني مللٌ من الخسارة اليومية.. لكنني لن أفعل..!

سِت طعنات سأسدِّدُها إلى قلبي.. منتصفه تحديدا.. كانت أمي تقول إنني بـ«سبع أرواح».. سأغتال ستًّا منها.. وسأبقى مصلوبًا في السابعة، إلى أن يجدَّ جديدٌ.

السكين الكبيرة لن تفي بالغرض.. الجرح سيكون غائرًا.. الدم سيتناثر في كل الأماكن.. ستكون فوضى.. إذن.. لا مانع من اللجوء للصغيرة.. نصلها لم أستخدمه قبل.. لم يمُر على سطح ثمرة طماطم ليقسمها من المنتصف.. ولم أغرزه في عظم دجاجة لأجهز وجبة «بانيه».. هي التي تستحق المرور بين

أضلعي.. ومنح قلبي قليلًا من الألم.

لم ترتعش يدي في الطعنة الأولى.. درَّبْتُ نفسي 15 دقيقة على تقبلها.. غاصتْ السكِّين بسهولة.. تذكَّرتُ أمي.. لا.. رأيْتُ أمي.. جالسة كعادتها على حصيرتها المفضلة.. تمدد أقدامها أمامها.. تهش دجاجاتها الأربع.. والخامسة «العمياء» تتركها ترقد مستكينة جوار قلبها.. تعرف أمي كيف تتعامل مع العميان.. لمحتُ ضفيرتيها.. أحمر الحناء يبدو ناصعًا.. إنه الجمعة.. اعتادت تخضيب ضفيرتيها بالحناء صباح كل جمعة، وهي تتلو الفاتحة لروح أبيها.. وتطمئنُّ من حمامتها البيضاء على موضع أمها في الجنة.

النزيف بدأ.. أعددت كل الأشياء المطلوبة لزيارته.. ستارة غرفة النوم أزلتها.. وضعتها تحتي.. وأسندت ظهري لحائط الحمام.. سددت الثانية.. تلاشى الألم تمامًا هذه المرة.. أشعلْتُ سيجارة.. ونفثتُ دخانها في صمت وهدوء يليق بميت.. رسمتُ دوائر دخان.. ستُّ دوائر.. كل واحدة منحْتُها اسمًا.. لا أذكر أيًا منها الآن.. لكنَّ كل اسم منحته ذكرى.. وتركته يختار طريقَ خروجِه.

موجعة جدا كانت الطعنة الثالثة.. مؤلمة.. أسناني أطبقت

على «فلتر السيجارة».. عروق يدي نفرتْ، الدماء تجرى فيها.. تُسرع في رحلة بحْثِها عن الثقب الجديد لتخرج هى الأخرى منه.. قبضْتُ بشدة على الستارة.. ارتخت أصابعي مع الطعنة الرابعة.. فرأيتها.. تذكرت يوم منحْتُها قبلة في باطن يديها.. تعجَّبْتُ من تصرفي.. قلت لها «أنا ملكك».. فرحلت بعد 30 يومًا من قبلتي تلك.. لا يهم.

في الخامسة.. فقدت السيطرة على كل شيء.. مرت السنوات أمامي.. حمراء فاقعٌ لونها كانتْ.. أو هكذا خُيِّل لي الأمر.. رأيت أبي.. يااااه.. عيني اليسرى كانت مكتملة.. لوَّحْتُ له علّه يراني.. لكنه أعطاني ظهره.. وأنا أسدد السادسة.. فبكيْت.

سأترك السابعة.. لوقت آخر.. سأجيب عن سؤالي.. سأحلق ذقني.. سأوجِّه هواء المروحة إلى بيت العنكبوت.. سأعد ساندوتش «مربى التين».. سأتعاطى مُسكنًا للألم.. سأغلق جُحر فأر المطبخ.. سأصلي إلى الله ليغفر لأمي.. سأذهب إلى طبيب عيون يُعيدني إلى سيرتي الأولى.. سأحصل على صورة جديدة وأمنحُها لأبي.. سأموت وقد سدّدْتُ ديوني كلها.. سأموت كما يموت الغرباء.

مع مظلة وصفيحة زبالة

ساعة هاتفي المحمول تشير إلى الثالثة صباحًا.. شوارع وسط القاهرة جميلة في هذا التوقيت.. مزاجي يكاد يكون في أحسن حالاته؛ لهذا كافأته بـ«تمشية» طويلة في طريق العودة. تحركت من بداية شارع قصر النيل، وما هي إلا دقائق معدودات وواجهت «عبد المنعم رياض» رافعًا يده في وجه الـ«لا أحد». أدرت رأسي سريعا تجاه المتحف المصري. سيارة مسرعة أخذتني من «الفريق الشهيد»، لحظات.. لحقت بها ثلاث سيارات.. صوت الموسيقى العالي أكد أنَّ في الأمور أمورًا.

حاولتُ تتبع مصير السيارات أثناء صعودها مطلع كوبري أكتوبر، بدأت في إعداد رأسي لتجهيز سيناريو تخيلي للأمر. عدلت عن التفكير ونحيت الأمر برمته جانبًا.

– البيرة الملعونة تجعلني أشبه بكلب يتبول، يريد أن يتبول

على كل الحوائط التي يقابلها، ورغم هذا أحبها...!

قلتها بعدما صرخت مثانتي الممتلئة.. انتحيت جانبًا. تركت العنان لنفسي. انقطع خيط الماء بعدما التقطت أذني أصوات «فرملة».. توقعت انهيار العربات الأربع فوق الكوبري.. المقدمات المتسرعة دائما نهاياتها تكون محزنة.

أنهيت معاناة مثانتي، وتركت قدميَّ تحملاني إلى داخل موقف «عبد المنعم رياض» لعل «ميكروباصًا» يهوى التسكع مثلي يلتقطني في رحلة العودة.. لكنه كان «خاويًا على عروشه».. النار أحرقت مقدمة سيجارتي الثالثة منذ مغادرتي «البار».. اعتدت إحصاء السجائر المتبقية.. 9 كانت.

- مش محتاج بقى تموين لحد الصبح.

تمتمت بها وأعدتُ العلبة المعدنية إلى جيب الجاكيت الداخلي، مررت يدي عليها مرة أخرى، لعلها سقطت سهوًا ولم تنم قريبة من قلبي، اعتدت أن أمرر يدي على كل ما يخصني لأطمئن لوجوده.

- أنا عارفة إنك بتكره أمشير بالذات .. بس بإيدك إيه؟!

العبارة اخترقت أذني.. حروفها واضحة كلماتها هادئة حزينة.. ما بيدها حيلة، التفتُّ ورائي بحثًا عن مصدر الصوت

لم أجد أحدًا، وليتُ وجهي ناحية اليمين، لكنَّ الفراغَ اللامتناهيَ صفعَ نظرتي نصف المستقيظة، أعدت التلفت يمينًا ويسارًا.. لا أحد...!

– طيب..

ما لا أفهمه في حياتي أمنحه كلمة «طيب»، قلتها وأعدتُ النظر لساعة هاتفي المحمول؛ محاولًا إلهاء خوفي واضطرابي بإحصاء الدقائق (الثالثة و25 دقيقة، الثالثة و26 دقيقة .. الثالثة و27 دقيـ...).

– عارفة.. أنا بكره كل النهايات.. نهايات الأيام.. نهايات فصول السنة.. بس بصراحة مش بكره نهايات الحب.. ممكن عشان مجربتش..!

الكلمات هذه المرة اقتحمت أذنيَّ، حاولتُ أن أقنع نفسي أن «الكحول» هو السبب، الاستعاذة من شيطاني،لن تكون ذات جدوى، فحلقي المعطر برائحة الخمر أبعدني عن لحظة الإيمان العابرة.. وقد كان.

«خوفي من خوفي ليكبر .. خوفي من أفارق الدمعة
وأبقى وحدي بالليالي.. وما أثق بضوء شمعة»

ذاكرتي أسعفتني بالمقطع الغنائي.. حاولتُ التعاطي مع

الأمر.. مجاراة المحادثة الغامضة التي تدور أمامي، ألقيتُ نظرة خاطفة فوقي.. سطح «المظلة» المتسخ صامتٌ.. على يساري ترقد «صفيحة زبالة» بائسة.. وما لا يزيد عن أمتار خمسة تفصلني عن إشارة المرور الأوتوماتيكية التي وضعت لتنظيم المرور صباحًا فقط، وعندما تنتهي مناوبة العسكري تبقى لإضافة عنصر السلطة على المشهد.

عيناي مسحت محيطي من جديد، ولساني أعاد «دندنة» المقطع للمرة العاشرة، وفي المرة الحادية عشرة عادت الأصوات لتخترق صمتي.

– أنت دايما كده.. مكبر كل حاجة.. الفلسفة دي هاتوديك في داهية.

الصوت هذه المرة جاء من ناحية إشارة المرور.. أعجبتني اللعبة، تركت سيجارتي تسقط من يدي، لا أحب أن أضغط عليها بحذائي.. أتركها مثلي تحرق نفسها، وتموت في صمت دون إهانة أو ضغطة حذاء قاسية تفسد لحظات الحياة الأخيرة.

– خليكي في النظام بتاعك.. أنتِ تعرفي إيه عني عشان تتكلمي.. ده أنتِ لسه جاية من كام شهر.. أنا هنا من أيام مظاهرات «الغلابة».

الصوت جاء من فوق رأسي...!

- قصدك الحرامية اللي كانوا عاوزين ينهبوا البلد.

الكلمات حملها الهواء المقبل من ناحية إشارة المرور..!

- حرامية .. غلابة.. أهو كله محتاج.

أشعلت سيجارة جديدة.. الحديث اتخذ منحنىً خطرًا لا يمكن متابعته دون سيجارة مشتعلة، تجاهلت إهدار «التموين الصباحي»، وأصغيت.. فتحدث الصوت الحزين من جديد.

- إحنا كلنا إيه أصلا.. والحب ده إيه.. والكره كمان.. دي مشاعر بشر مش لأمثالنا..!

الصوت هذه المرة كان مقبلًا من ناحية «صفيحة الزبالة»..!

«الحكاية قلبت بعفاريت».

قلتها بيني وبين نفسي، وأكملت:

- دول إيه بقى.. شكلها أيام سوداااااا.

- بشر إيه اللي بيحبوا.. ما أنتِ شايفة كل يوم كام واحد بيعدي قصادك.. كام واحد حاسس بيك .. عارف قيمتك.. واحد .. اتنين.. عشرة.. من مليون، أنا أهو قدامك.. دايمًا موجود، كل حاجة بأقدمها للبشر بتوعك.. بس النتيجة إيه.. شوفي بعينيك.. ركزي في شكلي بقى إزاي.. كنت إزاي..

والبشر بتوعك خلوني إزاي.

الصوت كان غاضبًا جدًا.. جاء هذه المرة من فوق رأسي.. لامست نيران حروفه أطراف شعري، وللحظة شممت رائحة احتراق، وضعت يدي على رأسي.. شعري في مكانه لم يمسسه سوء.

- أنت دورك ده.. وعارف إنك موجود عشان كده.. أما التصرفات اللي وصلتك للحال ده فإحنا ملناش ذنب فيها، كل الدنيا فيها كده وكده.. ماتلومش حد.. حتى اللي خلقك ماتلوموش.. هو كمان كان نفسه في حاجة.. طلعت حاجة تانية.

هنا قررت منح الأطراف المتحدثة ألقابًا، لا أحب أن يعبر مجهولون حدودي.. أول حرف من اسم أبي منحته للصوت الغاضب.. الصوت الهادئ الحزين، قريب الشبه بصوت أمي، منحته اسمها كاملًا هذه المرة عن طيب خاطر.. البعيد عني بخمسة أمتار أعطيته -مرغمًا- حرف «س» ولم أكلف نفسي عناء مَنْحِه اسمًا كاملًا.

جاء صوت أمي، القريب بأمي، هذه المرة:

- أنت موجود عشان وجودك مهم، بص حواليك كده، شوف الزوايا اللي إنت مش فيها شكلها إزاي.. مهجورة..

ماالهاش لازمة.. إنت موجود عشان تمنح وماتنتظرش شكر.

-

«س» قاطع صوت أمي.. وأكمل دون أن يقدم اعتذارًا عن المقاطعة:

- أتحداك تقدر تغير حاجة.. أنا أفهم أكتر منك.. ومكانتي مخلياني شايف كل حاجة وبنظرة واسعة.. أنتَ في نعمة، وجودك عادي.. وغيابك أكتر من عادي.. كمل كمل.. والعن كمان لحد ما تترفع من فوق الأرض.. ويومها هاتقول «ولا يوم من أيام زمان».

الصمت غلف المكان دون أية مقدمات.. أضواء خاطفة انعكست على قاعدة إشارة المرور لحظات، ألقت بخيوط شبه ميتة على صفيحة الزبالة، وتوقفت كثيرًا على حائط المظلة التي أجلس تحتها، أطفأت السيجارة، وضعت يدي اليسرى فوق عيني، وأشرت باليمنى لسائق الميكروباص.

«مطبعة.. يا باشا؟».

- هو فيه باشا بذمتك يا هندسة بيقعد هنا الساعة دي مستني حضرتك؟!!!

- يعنى هو فيه هندسة بيسوق ميكروباص حضرتك..!

لن أتركه يربح معركة الكلام.. لهذا أكملت:

- في بلدنا.. بصراحة فيه.

أخذها السائق وصمت. قفزت في المقعد الأخير.. أخرجت رأسي من الشباك.. ألقيت التحية على صفيحة الزبالة.. ربتُ بيمناي على جدار المظلة.. وعندما بدأت السيارة رحلة المغادرة منحتُ قاعدة إشارة المرور «بصقة» من النوع الثقيل.

اختبارات تصلح لـ«الحالمين»

نهار ينايري ممل.. بارد.. اخترت خانة «أنثى».. الأسئلة التالية ستسعدني -ممكن- .. أدركت هذا جيدا بعدما وضعت سهم «الماوس» علي تلك الخانة.. حاولت التراجع لكن السؤال الثاني كان مباغتًا: «هل أنتِ راضية عن كونك أنثى».. (نعم - لا - لم أفكر في هذا الأمر من قبل).. تماديت -في أنوثتي الكاذبة- واخترت (لم أفكر في هذا من قبل).. توالت الأسئلة المريحة والمؤدية لـ«المهمة المستحيلة».. الإجابات كانت (متزوجة).. (الأطفال سر سعادتي).. (لا أهتم بالجنس كثيرا).. (أحتاج دائمًا إلى من يستمع لي).. (من الممكن أن أدخل في علاقة غير متكافئة).. (المال لا يشتري السعادة).. (زواج صالونات).. (لا أهتم).. (لا أهتم).. (لا أهتم)..(أفضل الجلوس وحيدة).

وصلت لمرحلة «اضغط لتعرف النتيجة».. أشعلت سيجارة،

أنهيت النيسكافيه.. نظرت طويلا إلى شاشة «اللاب توب».. حاولت تخمين النتيجة، لم أستطع هذه المرة تقمص دور المرأة.. حاولت للمرة الثانية.. وجدت ما أقدمه كنتيجة لا يتعدى كونه «تصرفا رجوليا.. وحلما ذكوريا».. أعجبتني لعبة «تخمين النتيجة».. دخلت صفحة الاختبارات من نافذة جديدة.. وضعت الإجابات ذاتها.. وتجاهلت سؤال (الجنس أم الحب أيهما يصنع سعادتك).

(أنتِ إنسانة حالمة.. تبحثين عن الحب ولكن بشروطك.. لا تصلحين إلا لدور الأم.. ونهايتك ستكون ناتجة عن ورم في المخ).

«أووووف».. تجاهلي لـ«الجنس أو الحب» سيقتلانني بـ«السرطان» .. هل يمتلكان مفتاح النجاة من تلك الأورام التي تتسرب إلى أجسادنا كالحزن.. تخيلت شكلي وأنا «حليق الرأس».. حاولت الخروج من حالة الكآبة، لكنها تملكتني...!

(أنت شخصية معقدة.. الاقتراب منك لا يمكن أن يتم بسهولة.. مواقف قليلة جدًا تجعلك أنثى كاملة.. الجنس من الممكن أن يكون فعلك المفضل.. حاولي الخروج من تلك الشرنقة.. وننصحك بالبحث عن دور في حياتك العائلية..

الحياة أجمل بوجود الحب).

الحب والجنس يفصلان الإنسان عن «الحلم والألم».. أعجبتني نتيجة الاختبار الأول، قبل أن أترك الصفحة، لاحت أمامي نافذة جديدة.. تعرفي على شكلك فى الثمانين.. أخذت النفس الأخير من السيجارة، ألقيتها في «المج» الفارغ، وقلت بصوت مسموع: «اليوم يوم الأنثى»..!

إله الشيخ زايد

حرامي الشنط اللي عندنا في زايد، راجل عنده مبدأ.. ما بيخطفش شنطة من على كتف ست عجوز أو ست شكلها فقير، البعض بيأكدوا إنه بيخاطر وبيفتح الشنطة -بعد ما بيسرقها- علشان يرمي للضحية أي أوراق مهمة.. باسبور، بطاقة.. إلخ. واحدة بتحلف إنها -بيأسٍ- قالت له: «كارت الميموري عليه كل الداتا بتاعتي».. فرمل.. خرج كارت الميموري.. رجع كام متر.. سلِّمه لها في إيدها... وبعدين اختفى.. بعض اللي اتسرقوا بيحكوا -بعينين ملأتهما الدموع- إنهم بعد ما اتسرقوا بكام يوم اتبعتلهم جواب من مجهول فيه جزء من متعلقاتهم الشخصية المسروقة.

اللي شافوه بيحلفوا إنه بيعتذر لأي ست وهو بيشد شنطتها.. «أنا آسف».. بيقولها بكل صدق وإخلاص العالم.

حرامي الشنط اللي عندنا في زايد، شخصية متجردة، فريدة من نوعها، مثيرة للجدل، بطريقة هتخليك تسأل بينك وبين نفسك: ليه العالم ما يتمليش بحرامية كتير عندهم ضمير من أمثاله.

«تنفع مدخل لحاجة جديدة..».

قرر الاستعانة بـ«تدوينة» أعجبته أثناء تصفحه اليومي لصفحته الرئيسية، تراجع عن فكرة الكتابة عن الماضي، الكتابة عن أمه.. أبيه، حكاياته الخاصة جدًّا، يومها أقنع نفسه أن الأيام ستأتي وسيحتاج إلى ذكرياته تلك لـ«مذكراته» المنتظرة.

أنهى رحلة التصفح سريعا.. هكذا اعتاد أن يمارس حياته، يرفض حلاقة الذقن لأنها «بتضيع خمس دقايق من عمري».. ردٌّ جاهز عندما يباغته المدير بطلب «حلاقة المكنسة اللي في وشه» يصفها دومًا بالمكنسة، ويرفض دومًا أيضًا الموافقة على المئة طلب التي تقدم بها «رجل المكنسة» للاستقالة والرحيل.

لا يحب ارتداء «البدل»، «غريبة وبتخليني أغـرب».. في حفل خطوبته فشلت كل المحاولات لإقناعه بـ«شراء بدلة»، قرر أن يتزوج على سنة الله ورسوله، وليس على سنة «صاحبات العروسة» وحكاية «الكرافتة» التي يجب أن تناسب لون الفستان.

تركته هي.. لم يكن بينهما شيء يدفعها للبقاء معه، يرفض على

طول الخط، وهي لم تعتد أن تحاول لـ«مرة ثانية»، كان دائمًا يُمني نفسَه بأنها ستحاول، ثلاثة أشهر وخمسة أيام وسبع ساعات، كان خلالها يقول «لأ» وينتظر منها محاولة، مجرد محاولة، لأن يقبلها بين عينيها، وهو يتمتم بـــ«نعم»، هل لم تفهم نبرة صوته، لم تدرك أنه «ممكن يتغير»، لم تلاحظ ارتعاشات شفتيه بعد ثوانٍ من نطقه «لأ» الممطوطة التي يبدو وقتها وكأنه يدندن بأغنيته المحببة «لا..لا ..لا تكذبي».

مرَّ سريعًا على العمل، أضاف الاستقالة رقم مئة وواحد لدوسيه «البوستة» التي تعرض على من كان سيصبح فى يوم من الأيام «حماه»، ورحل، داعب مؤخرة السكرتيرة بـ«نظرة وابتسامة»، ألقى التحية على عقدها الذهبي الذي تزين به «كعبُها»، ولم ينسَ إلقاء السلام على أول مُنحنى بعد الشامة التي تغفو فوق خدها الأيسر.

فى طريق العودة تذكر «روبن هود الشيخ زايد».. يسرق ويقول «آسف».. يعيد للناس ممتلكاتهم المهمة جدا، يرسل برقية عاجلة لـ«الاعتذار»، ولا يقترب من العجائز ولا الفقراء... غريب هذا الرجل، لو اعتذر لنا كل من سرق أحلامنا.. حياتنا.. أحبتنا.. لما كنا حزانى.

فتح «اللاب توب».. أدخل كلمة المرور «123»، ساذجة جدا «شفرة مروره»، وهو يعلم أن الناس لا تفترض فى أمثاله السذاجة، فجعل كل «كلماته السرية» ذكرياته.. حياته كلها «ساذجة جدا».

طالعته الخلفية البيضاء، هو لا يحب اللون، لكن اتخذ قرارًا بجعلها «بيضاء تسر الناظرين» عندما اكتشف آثار الزمن تظهر سريعًا على «الأبيض»، من الممكن أنها تمنح الأسود نوعًا من «البهتان»، الأحمر أيضًا لا يستمر بنفس «الشهوة»، والأخضر «ضد التغيير».. إنه الأبيض الذي لا يوارب فى مواجهة الزمن، ولا يخشى آثاره وندباته.. وجروحه أن تظهر على سطحه..إنه الأبيض.

«لماذا لا تعتذر السماء لنا عندما تأخذ منا الأعزاء؟... لماذا لا تترك أشياءنا المهمة باقية في حياتنا؟.. لماذا لا تراسلنا وتواسينا وهي تعرف عناوين إقامتنا ؟.. كم أتمنى أن تكون السماء في أخلاق «حرامي الشيخ زايد».

تراجع عن تلك الفقرة، «مش ناقص دوشة» أغلق الجهاز.. واستسلم للنوم.

امرأة تفضل اللون «البني»

تسمرتْ قليلًا أمام المرآة.. ألقت نظرة مدققة بعدما انتبهت لزيادة مساحة الأسود تحت عينيها.. أدركتْ أنها تجاوزت قليلًا في «عِندها» تجاه نصائح الطبيب.. أخبرها أن «الأمل ضعيف».. كعادتها ألقت بتحذيره في أول سلة مهملات قابلتها فور انتهائها من تجفيف دموع الخسارة.

25 عامًا.. هل أحتاج إلى هذا الكم من الحزن لأدخل عامي الـ26؟!.. هل تظنني أخطأت لهذا تعاقبني وأنا هنا على أرضك؟!.. نفضتْ رأسها بقوة.. دارت بعينيها سريعًا لترى هل التفتَ إليها أحدٌ من ركاب «ميكروباص الهرم».. كلهم عندهم حتة سودا وأسئلة غبية.. تمتمت بها وعادت سيرتها الأولى.

السماعات لا تفي بالغرض.. «التباع» يلقن زميلًا له في عربة مجاورة درسًا في كيفية «التظبيط».. جذبها الحديث.. تمادى في

الشرح، بعدما تأكد من وجود جمهور يتابع حكاياته.. تحدث مع صديقه عن ضرورة «جيل الشعر».. لم ينس أن ينبهه من وضع يديه فوق كتفها.. «الناس هاتفهم غلط يا حمار».. وأخيرا أنهى درس «التظبيط» محذرًا: «اوعى تروح حديقة الأزهر.. مش هاتعرف تعمل حاجة.. الحكومة شادة قوى هناك.. المنيل حلو.. الكورنيش بيبقي كُحل».

حديقة الأزهر.. يااااااه، علاقتي به بدأت من هناك، يومها أقسم لي أنه يحبني أكثر من نفسه، كاذب هو، وأنا صدَّقْتُ كذبَه.

أوّل «بحبّك»، سمعتها منه، عندما حاولتُ مواجهته... اصطدمتُ بيد تعبث فوق ركبتي.. فزعتُ، حاولت التركيز في ملامحه، اليد متوترة على فخذي الأيمن، «التنميل» بدأ يطرق أبواب جسدي، درجة الفزع ازدادت، حاولت إيقاف نزيف الكرامة، الشرف، أمي، لمحتها في جزء من الثانية، لم تحدثني، حدجتني بنظرة لوم، ركزت على «يد الشهوة».

تركته يومها، يعبث قليلًا، راقبته جيدًا، جيدًا جدًّا، عيناه زائغتان، شفتاه مترددتان، لم يتأسف بعدما انتهى من عبثه وشهوته، برر فعلته قائلا: «إنتي وحشتيني»، انشغلت بالبحث عن تبرير، سبب، حجة، البحث عن أي شيء، لـ«التنميل» الذي

أتبعه جسدي بقطرات مياه ساخنة لزجة.

«بحبك».. كنت صاحبة ضربة البداية، في المكالمة الهاتفية، مع الرجل المجهول، حديقة الأزهر منحتني الشجاعة، ومن قبلها الرغبة، ظللْتُ بعدها بأسابيع أحاول تقليد لمسته، لكن في كل مرة كانت الأيدي تخونني، لم أصل لمرحلة التنميل، ولم أضطر لأخذ حمام طويل لأتخلص من البقايا اللزجة التي تطفو على فخذي.

اتجهت لـ«مترو الأنفاق»، ولَّيْتُ ظهري «عربة السيدات»، اخترت مواعيد الازدحــام، التصقت -عن قصد- بأفخاذ الرجال، رائحة العرق المقرفة.. الأنفاس النتنة.. و«القرص الموجع» الذي تلقتْه أماكن جسدي الحساسة.. وأخيرًا تراجعت عن المضي قدمًا في رحلة البحث عن متعة «التذكرة الصفراء».

«أوووووووف... مالك بس»

زفرتُ بها وهو لا يزال على الخط.. رغم أنني أتقنْتُ ثقافة «الفون سكس»، لكنني حتّى الآن لا أقبل أن يعبث أحدٌ معي فى المنطقة السفلى، شرطي واضح.

- «العب فوق.. ولو قدرت عليا هاخليك تنزل كام سنتي لتحت».

3 مرات فقط أقنعني «عشيق الهاتف» بالتخلي عن «شرطي الجنسي».. صاحب المرة الأولى كان كريمًا جدًّا معي، صبر ثلاثة أشهر، مكالمة واحدة في الأسبوع مدتها 45 دقيقة، أنا صاحبة الموعد والمدة أيضًا.. ثلاثة أشهر لم يملْ طوال 12 أسبوعًا من تقبيلي، ولأكون دقيقة، افتراض تقبيلي على الخد الأيمن، أخبرته أن الأيسر لا يحتاج إلا إلى لمسة.

يومها.. أتذكّره جيدًا، لا أدري لماذا كنتُ أعرف أن ما حدث سيحدث قبلها بعدة أيام.. مشوار صغير لـ«الشواربي» خرجتُ منه بـ«لانجيري رائع».. ستان بني، حمالتاه من غير المعقول رؤيتهما بالعين المجردة عندما تتدليان من الكتفين.. انحناءة متقنة الصنع تظهر استدارة النهد.. وللحق تجبره أن يصبح مستديرًا.. لم أرهق نفسي بالنظر إلى الـ«كلوت» المرفق به، قررت أن يكون «البني» سيد جسدي يومها بلا منازع، منحته «تأشيرة» احتلال نصفي الأعلى، وليكن ما يكون، ومنحت القطعة الإضافية لمتسولة لمحتها أمام سينما مترو في طلعت حرب، قبلته بـ«روح رياضية».

كأنني خضعت لـ«تنويم مغناطيسي».. قبل ميعاد المكالمة الأسبوعية، منحت جسدي «دُشًّا ساخنًا»... ساخنًا جدًا...

استعنت بـ«مرطب للجلد».. خضعت -وللحقيقة أخضعت نفسي- لجلسة «تدليك» طويلة، ثلاث قطع «سويت» استخدمتها.. مررتها على كل سنتيمتر في جسدي، تركت مثلثًا مقلوبًا فقط في المنطقة النائية، منذ سنوات أترك هذا المثلث، أهتم به في أوقات الفراغ، أراعيه جيدًا، وأحاول في كل مرة أن أضيف إليه لمسة خاصة.

طفولتي عادية جدًّا، أبي مجرد أب، مرَّ مرورَ الكرام على سنواتي، أمي لم تكن متفرغة لتتابع مراحل نموي، ألقتني في «حجر خالتي».. الأخيرة كانت في انتظاري، أتذكرها جيدًا، لا تجمعني صور إلا معها، 3 أشهر كانت كافية لتصبح أمي خالتي.. وخالتي أمي.

خالتي لم تتزوج.. أقنعتني عندما سألتها عن مرور الرجال الدائم عليها بعد الثانية عشرة ليلًا بأنها «غاوية تبديل جزم»... لم تشرح لي الرابط بين الرجال والأحذية، ظلتْ سنواتٍ عشرًا تمارس حياتها الجنسية بكل ما تمتلك من جمال، وغواية، هي مدرستي الجنسية، منهجها قائم على الممارسة، لا تعترف بـ«الدروس النظرية»، دائما تجعلني على موعد مع امتحان، لكنها كانت أشد حرصًا مني على أن أبقى «بنت بنوت».

«خليه هو اللي يتعب.. اوعي أنتِ تنسي نفسك.. مافيش حاجة اسمها حب، هو عاوز منك حاجة ادِّيه اللي نفسه فيه بس من غير ما تخليه يركب فوقك».

النص المقدس الذي حفظته عنها.

«فجأة بقيت مدام».. لم أتزوج.. لم أغامر بقرار الارتباط بأحد، أصبحت امرأة بيدي، لم يقربني رجل ليلتها، استمتعت بـ«أنوثتي» ورجولتي في آن واحد، الحكاية بدأت برحلة بحث، قبل أن أبدأ عملية الانتقال من خانة الآنسات لـ«دنيا المدامات»، وجدت أن الأمر -بالنسبة للرجال- لا يتعدى كونه «تفجير غشاء»، قرأت كثيرًا، حكايات جميعها جعلتني أكثر إصرارًا على تنفيذ العملية دون الاستعانة بأحد يمتلك زائدة جلدية، أتركه يعبث بجسدي.

أدمنت ممارسة الجنس مع نفسي، أعدت اكتشاف كل سنتيمتر في جسدي.. وراء أذني من الممكن أن أذهب إلى الجنة لمجرد دغدغة، «عض حلمة الأذن» هو الآخر له مفعول السحر.. ولمسة الرقبة برقة تنقلني لدنيا «ما كنت أطولها لو حتى في خيالي».. لكنني لم أقتنع يومًا بالعبث في أبراج صدري.. أحب النظر إليها فقط.. ودائمًا «ممنوع اللمس».

أسابيع قليلة.. وتوقفت، وتحديدًا عندما تذكرتُ أن سعري في السوق «ممكن يتأثر». مرَّتْ على ذاكرتي حكاية الكاتبة التي سردتْ قصة عاهرة استطاعت طوال سنوات عهرها أن تحتفظ به مناسبًا، لا هو ضيق يتعبها، ولا يمتد لمسافة يمكن أن تجعلها مطلوبة لـ«كلاب السكك».

غريب أمري.. ظننتُ بعد صفحات عدة من الرواية أن الكاتبة هي العاهرة، في حفل توقيع كتابها وجهتُ لها سؤالًا عن كيفية وصولها لتلك المنطقة، لاحت من بين شفتيها ابتسامة، عضتْ شفتها السفلى بدلال، لمحت لسانها يلعق موضع الـ«عضة»، ... لم تجب على السؤال وأصرتْ أن نكمل السهرة سويًا، وفعلًا.. الكاتبة عاهرة... كم أنا رائعة حينما أفكر....!

علاقتي بها لم تدم كثيرًا.. أنا أحب الرجال، هي تحب النساء، لا تحديدًا هي تحب تعذيب النساء، فاجأتني في أول لقاء بيننا بـ«قرصة» في فخذي، خالتي لم تعطني معلومات كافية عن التعامل مع أمثال الكاتبة العاهرة، بادلتها القرصة بلمسة أتقنها تحت سرتها، هنا قررت نقل أرض المعركة، داعبتني كرجل يداعب امرأة، لكنها كانت أكثر إتقانًا، لعقت أذني، أدخلت لسانها هناك، تركته يتلوى، وقضمت حلمة الأذن بـ«شوق»

واضح، تحكمت في أعصابي، أتقن تلك اللعبة، إصبعها الأوسط لامست به منتصف ظهري، تركته يتأرجح هناك، لم أستجب، لا أحب تلك المنطقة، الرجال دائما يظنون أنها «أرض الشهوة».

«ماليش في الشمال»... جملة واحدة ألقيتها عليها بعد حمامي الصباحي، أخبرتها أنني امرأة ولن أكون سوى امرأة، توقعت أن تعرض مبلغًا ماليًّا لمغازلة فقري، الملعونة لم تفعل، نظرة طويلة جدًّا ردتْ بها على صرخاتي، تركتني في صالة شقتها، لا يسترني شيءٌ، ثوانٍ قليلة وعادت حاملة بين يديها 3 أسطوانات، ألقتها تحت قدمي، وأكملت:

«اتفرجي على دول الأول.. وبعدين قرري».

الطبيعي أن تكون الأسطوانات الثلاث خاصة بكل اللقاءات الجنسية التي تمت بيننا، والجائز في مثل هذه المواقف أن أنهار وأعتذر وأكمل معها مسيرة العبودية، أو أن أضربها «علقة موت»، لكن لم يحدث من هذه الأمور شيءٌ، الأسطوانات الثلاث لم تكن أكثر من «دروس تقوية» في «المثلية»، شهادات حية من مصريات وخليجيات وأجنبيات أيضًا، جميعهن يتحدثن عن «الآخر غير المرغوب»، كل واحدة منهن تحكي مأساتها التي فتحت لها أبواب الجنة، هذه والدها تحرش بها عندما بدأتْ تظهر

عليها معالم الأنوثة، والأخرى لم تجد من أخيها إلا لقاءً جنسيًّا «مقرف قوي» -على حد وصفها- وثالثة داعبتها أمُّها فى سنواتها الأولى، واكتشفت أن الأم، لا تحب أباها، لكنها تفضل «اللمسة الحريمي»، رأتها يومًا فى حضن جارتهم، وفي اليوم التالي جلست على مقعد المشاهد، وفي الثالث تلقت أول درس في فنون «المتعة».

- «ده كلام فاضى»

جملة أنهيت بها مناقشة كان يبدو أنها مستعدة لها، إجاباتها جاهزة، فالسنوات الماضية واجهت حالات كثيرة مثلي، لكنها لم تكن تتوقع «الكلام الفاضي»، تركتني أرحل في صمت، لكنها طلبت الاحتفاظ بجزء مني، أعطيتها «الكلوت» ورحلت.

بانيو «الغمازة اليمنى»

أوجعتها الكلمة.. حاولت تذكر تفاصيل المحادثة الموجعة.. غضبتْ عندما أدركتْ أنها ضغطت على زر «امسح» قبل أن تحفظها كعادتها.

لم تبكِ، اكتفتْ بـ«عصر دماغها».. سمعت صدى الكلمة في أذنيها، تحججت بـ«التهاب الأذن»، وتركت الأمر لما بعد العشاء»، أنهت مسؤولياتها المنزلية وانتحت بـ«سيجارتها الفاخرة» و«مج الشاي» ركنًا قصيًّا، الصوت يطاردها، ألقت بـ«السيجارة».. ركضت ناحية المرآة.. فتاة عادية كانت، لا شيء يدل أنها من الممكن أن تكون كما وصفها.

نظرت طويلًا.. تذكرت «من الممكن إصراري على ارتداء الملابس الصيفية في الشتاء هو السبب في وصفه لي بأنني...» لم تكمل الجملة، هزت رأسها، وعادت لـ«سيرتها الأولى»، أعادت

النظر لجسدها، وقالت: «إنها الغمازة اليمنى..!.. لكنه يحبها، فكيف يجعلها طلقة النهاية» ؟!

أعادت النظر لجسدها، لم تجد غير المنحنيات الطبيعية. جميعهن يمتلكن منحنيات.. من الممكن أنها تهتم بها أكثر من اللازم «لكنها طبائع الأمور».. ألم يقل عنها شاعرك المفضل:

متمردان على السماء ... على القميص المنعم
صنمان عاجيان ... قد ماجا ببحر مضرم
صنمان .. إني أعبدُ الأصنامَ رغم تأثمي

يومها –دون تردد– قلت لك، مستعينة بـ«شاعرك المفضل» : «على هذه الأرض.. ما يستحق الحياة».

عادت من جديد للمرآة.. نظرت طويلًا لوجهها.. حاولت أن تجد السبب لوصفه لها تجاوزت الغمازة.. تجاهلت أعلاها.. وأسفلها لا يشغلها ولا يشغله أيضًا.. حتى ساعات قليلة مضت.

«الحاجب الأيمن.. المنحنى الذي أعاني كثيرًا لضبطه.. والدتي –رحمها الله– قبل أن تغادر أوصتني به كثيرا.. لم تمل من ربطه بـ«حكايتها مع أبويا».. ولأنني «نسخة بالكربون» منها، فقد اتبعت نصيحتها وجعلته «المهمة الصعبة».. أنت أحببته كثيرًا.. وغضبتَ منه أكثر.. في كل مرة تقسم بأنه سيكون سببًا

في افتراقنا.. فهل كان؟!

.....

لم تجد إجابة في قاموسها الجسدي تخبرها كيف أصبحت «عاهرة»..!

.....

في محاولة ثانية، قررت أن تكون أكثر صراحة.. أغلقت خلفها «باب الحمام».. تخلت عن ملابسها قطعة قطعة.. ألقت الـ«تي شيرت» في «سلة الغسيل».. نظرت مرة ثانية لنفسها.. تأملت عنقها.. اكتشفت جماله فجأة، تذكرت أول قبلة تلقتها في تلك المنطقة، الفاصلة بين أذنها وبينه، يومها سمعت نفسها لأول مرة تقول «أحبك» بصوت، لم تعتده من نفسها.. نظرت إليه طويلًا.. لاحظت ارتجاف شفتيه.. احمرارًا في عينيه.. وتغاضت عن «بقية أعراض القبلة».

تجاوزت مرحلة ما بعد «بوسة الرقبة» بصمت، كعادتها عندما تشعر أنها أخطأت في حق نفسها، امتنعت عن سماع صوته لأيام ثلاثة، وعندما التقيا اكتفت بـ«دمعة» ووعد منه بعدم تكرار الأمر.

مررت يدها على رقبتها، لم تشعر -كما كان يحدث لها في كل

مرة- بالحب، اكتشفت أن خطوطًا صغيرة جدًّا احتلتْ منطقة «الروعة».

انزعاجها من «خطوط الزمن» لم يمنعها من استكمال خطة «التعري».. ضغطت على «البرا» فانزلق.. «لا جديد في الجسد».. عادية.. كنتُ.. وأكون.. وسأكون.

لمست منبت «نهديها».. لم تشعر بـ«شيء».. لفتت نظرها فقط ألوان المنبت.. تحب هي «قوس قزح» لأنه يأتي بعد المطر.. لكن ألوان صدرها المتدرجة جعلتها «غير راضية»...!

.....

-لماذا تلد الأنثى وهي مستيقظة؟!

-لماذا خلقت حواء من آدم وهو نائم.. وتلد وهي مستيقظة؟!!

- أتعلمون السبب؟

يقال إن الرجل حين يتألم.. يكره!

بعكس المرأة التي حين تتألم تزداد عاطفةً وحبًّا!

فلو خُلقت حواء من آدم -عليه السلام- وهو مستيقظ لشعر بألم خروجها من ضلعه وكرهها.. لكنها خلقت منه وهو نائم .. حتى لا يشعر بالألم فلا يكرهها.

بينما المرأة تلد وهي مستيقظة.. وترى الموت أمامها.. لكنها

تزداد عاطفة و تحب مولودها.. بل تفديه بحياتها!!

يا آدم لا تسخر من عاطفة حواء.. فهي خُلقت هكذا وهي جميلة هكذا.. وأنتَ تحتاج إليها هكذا.. فروعتها في عاطفتها.. فلا تتلاعب بمشاعرهـا.. ويا حواء لا تتضايقي إن نعتوك بـ«ناقصة العقل».. فهي عاطفتك الرائعة التي تحتاج إليها الدنيا كلها، فأنت نصف المجتمع الذي يبني النصف الآخر.

دون مراجعة.. أضافت الكلمات لـ«صفحتها الشخصية» وسارعت بـ«تسجيل الخروج»، لم تتنظر لتحصي «اللايكات» أو ترد على التعليقات، أو تحذفها، عندما لا تأتي على مزاجها، تخلت عن «اقتباساتها الشعرية المفضلة»، استدعت تلك الكلمات.. وقتها كانت في كامل عريها.. عادت إلى سيرتها الأولى.. ارتكنتْ برأسها لـ«حافة البانيو».. ويدها اليسرى فقط خارج «بحرها الصناعي» .. لم تمنح المياه «رائحة الياسمين»، تركت نفسها لـ«تكمل مسيرة التطهر» بـ«الماء.. والماء فقط».

تعشق هذا الوضع.. عرفته من متابعتها لـ«أفلام الأساطير اليونانية».. حاولت دائما إعادة تمثيل المشهد ذاته.. ملكة تأخذ حمامها الصباحي.. «بانيو» يتوسط غرفة النوم الكبيرة جدا... خادمة نصف عارية تنتظر سيدتها العارية بـ«ثوب كتان»،

تترك قطرات الماء تعانق كل سنتيمتر في جسدها.. تستريح من درجات السلم الرخامي الأربع.. والمخرج يأتي بـ«كاميرا خلفية» مستعرضًا رشاقتها.. ومتوقفًا - كثيرًا- عند الوجه الحزين لـ«الملكة العارية».

لم تكن تمتلك -لظروف كثيرة- المساحة الكافية لوضع البانيو في «أوضة النوم»، وشقيقتها لا يمكن أن ترضى بلعب دور «الخادمة».. لكنها استعانت بالصبر، في انتظار اللحظة المناسبة لتنفيذ مشهد «البانيو الروماني» وأملها الوحيد أنها تمتلك «وجهًا حزينًا».

رجل الحمل

«لا ذكريات لديك».. حاولت اتباع الخطوات اللازمة لأحصل من «فيس بوك» على ذكريات اليوم.. الملعون... لم ينتظر قليلًا لـ«يقلب» في «دفاتره القديمة».. في أقل من ثانية أخرج لي لسانه.. تمدد أمام وجهي.. أغلق كل طرق الهروب، وقف صامدًا.. لم يمنحني فرصة، لم يمنح نفسه هو الآخر فرصة لنصبح أصدقاء قال: «لا توجد أحداث اليوم.. سنبلغك عندما تكون لديك ذكريات يمكنك استرجاعها اليوم».

انتظرت 24 ساعة، أدخلت «باسورد» الحساب.. اسمها.. يوم عرفت «كلمة السر»، قالت: «سأكون دائمًا كلمة مرورك للسعادة».. لم أضبطها تتلص -كعادة النساء- على حسابي، هي تدرك -وأنا أيضًا- أنني لا أهوى سياسة «داري على شمعتك.. فضيحتك..أو حتى على أزمتك».. هي تعرف أنها تعرف كل

شيء عني، متى أكتئب.. متى أضحك.. متى أكذب.. ومتى أتحول لـ«مستذئب».. عندما يكتمل القمر، وتعود أدراجها لمحافظتها البعيدة جدًا.

لم تعطني فكرة عن كلمة مرورها.. من جانبي، لم أحاول التطفل، لأنها تحبني هكذا.. مشاعرها جامدة، لم أضبطها يوما، إلا كما هي، تغضب، عندما يستحق الموقف أن تغضب.. تأكل عندما تجوع.. لكنها أبدًا.. أبدًا .. لم تستطع مجاراتي في الجري وراء سحابات الصيف عندما كنا نلتقي... وكلمة مرورها توقعتها.. لكنني جبنت من تجربتها..!

مرحبا بك..

أحبه عندما يرفعها في وجهي.. تفاءلت -أخيرا- بـ«مرحبا الفيس بوك».. أمي دائما كانت تقول هذا: «اللي أوله فرحة.. عمر الحزن ما يبقى آخره يا وليدي».. عبثت قليلًا في يومياتي.. أضعت عدة دقائق في مراقبة الصفحة الرئيسية.. ألقيت نظرة طوووويلة على الرسائل، لم تعد، فلم تفاجئني بتحية الصباح... فعلت هذا كله.. وتجاهلت معرفة «ذكرياتك اليوم».

«أشعر بالمحبة».. أكره هذا «الإيموشن».. العالم لا يستحق أن نعلن فيه أننا نشعر بالمحبة.. أننا نشعر من الأساس.. العالم لا

يأبه من الأساس لـ«شعورنا».. فلم أجده يومًا يمنحنا «لايك».. أو حتى يضغط على «متابعة».. يبدو أن العالم لا يمتلك حسابًا على «فيس بوك».. خسر كثيرًا.. كان سيعرف ذكرياته يومًا بعد يوم.. كان سيتذكرها عندما يكتب اسمها في خانة «كلمة السر».

أنت شخصية رائعة.. المهاتما غاندي أنت الأقرب له.. جورج كلوني قريب الشبه بك.. وأنجلينا جولي زوجتك.. الاختبارات .. التسلية الوحيدة التي وجدتها لتساعدني على نسيان فشلي في إيجاد موضع قدم لي في «خانة الذكريات».. وعدتها أن أترك الخمر.. حافظت على الوعد.. واليوم يمر الأسبوع الثاني لآخر كأس «ويسكي» تناولته وهي تعلن تذمرها من «الكانز» الساخن.. يومها لم تتذمر من رفضي – غير القاطع- لمسألة تحريم الخمر.. رفعت حاجبها الأيمن -إحدى عجائبها السبع – عندما أعلنت لها أنني لا أحب أن أعيش 80 عامًا.. وأن الموت في الأربعين «أمنيتي الوحيدة».

أبي منحني الرغبة في الموت.. تركنا لسيناريو ممل مكرر .. إخوته يريدون بنا شرًّا.. الأم الجميلة يراودها العم الأصغر.. الخال الحالم لم يمنح أخته إلا «مزيدًا من البؤس».. وثلاثتنا «اتفقوا على ألا يتفقوا».. أعترف أنني راهنت على «تدخل السماء»..

القول الفصل.. فهو «سميع عليم»... لا أتذكر عدد المرات التي تحدثت فيها إليه.. واجهته بـ«أكاذيب شيخ الكتاب».. لم يرد.. طالبته بـ«التدخل السريع» لكنه «التزم الحياد».. وأمي «خبطت على صدرها» عندما أعلنت لها أننا سقطنا من «سفينة نوح» الناجية..!

هدى.. غضبت كثيرا بعد قراري -بلا أية مقدمات- اليوم آخر كأس.. اتهمتني بأنني مزور.. فـ«رجل الحمل» حالم وهادئ و«بيسمع كلام نصه الحلو»، وشخصيتي لا تنتمي لـ«أرض الحملان» .. تركت لـ«ضحكتي العنان» عندما اتهمتها بأنها تشكك في «شرف أمي» ورجولة أبي وخبرة «زهرة» الداية في قريتنا البعيدة.

لا أحب صوت «طرقعة» نرد الطاولة.. حاولت هي -لأكثر من مرة- إقناعي بـ«لعبها».. تحدثت عن روعة حسابات الوصول لـ«خانة اليك».. تغزلت في عملية تحريك «القشاط».. تذمرت كثيرًا عندما جمعت حجارة من أحد أركان شارع «قصر النيل» المهملة، ورسمت لها على «الترابيزة» مربعات متشابهة .. «أووووووووف» أطلقتها بكل ما تمتلك من روعة.. وأكملت «أنت ناوي تعمل إيه تاني .. عازوني ألعب سيجة يا مولاي»...!

حكيت لها -قبل أن تتركني- عن أمي.. أزماتي المتلاحقة معها طوال فترة المراهقة.. شعوري باليتم بعد «أول ليلة» قضيتها في القاهرة بعيدًا عنها، ودعواتها، التي لا تزال رهن خانة «قيد التنفيذ» في دفتر أحوال «عبيد الإله».

البطاقة لا تزال تحمل صفة «أعزب».. لم أضبط نفسي متوقفًا أمام كلمة «مسلم» عندما أطالعها بعد ما يعيدها لي «مخبر محطة مترو المعادي» أتذكر أنني يوما كدت أن أنهي حياتي عندما اعترفت لـ«أصدقائي» بأنني «مسلم بالوراثة».. يومها أنقذتني «رواسب صداقة قديمة» من حالة القطيعة التي هددني بها «الباشمهندس المتسلف».

لقاء «كأس الويسكي» الأخير لم تكتب له نهاية مبكرة.. ردت لي «صفعة الإقلاع» بـ«دندنة» لأغنية «كن صديقي».. تدرك هي جيدًا حجم غضبي عندما يحاول أحدهم الاقتراب من منطقة نفوذ «الست ماجدة».. وتعلم أنني أكره صوتها في حالتين فقط.. أهمها دخولها في «وصلة غنا».. يومها فعلت «الكأس الأخيرة» فعلته.. جعلني «رجل الحمل».. «زي الكتاب ما بيقول»... لم أنهرها كعادتي معها.. لم ترتعش حواجبي.. لكنني رسمت ابتسامة وتركتها تحترق بـ«صوتها».. أكملت التحدي.. ارتفع

الصوت أكثر.. واجهت الارتفاع بـ«الامتناع».. ازداد الصوت حدةً.. تركتها تكمل مسيرة «كيدهن العظيم».. لم يردعها إلا القادم من خلفي.. شهقت.. صمتت.. وبعد 30 ثانية بالتمام والكمال «عادت سيرتها الأولى».

قالت: «ده زميلي في الشغل.. وكنت مش عاوزة يشوفني في المكان هنا».. أدرتُ رأسي قليلا .. وجدته جالسا مع إحدي فتيات «البار».. زنقتها أخيرًا في «خانة اليك» عندما أردفت ببساطة: «بس عادي بالنسبة له إنك تشوفيه في الوضع ده».

اعترفت لها بأنني عشقتها.. كرهتها .. ولعنتها مليون مرة.. أصابتها -بدورها- «حمى الاعترافات» فكشفت لي أنها تكره رائحة جسدي.. وتكره رفضي استخدام «معطر» .. ذكرتها بحديثها في ليلة رأس السنة بأنها صرحتْ لي بأنها تعشق رائحتي.. اهتز حاجبها الأيمن قبل أن تطلق رصاصة الرحمة على منتصف رأسي تقريبًا بجملتها الأخيرة «أزمتك أنك مصدق كل حاجة إلا نفسك»..!!

«شكرا لك لأنك أنت من أنت».. تجاوزت أحزان محمود درويش وفراقه لـ«تونس».. واستخدمت كلماته كـ«إهداء» لكتابي الأول .. يومها قلت لها «أنـت من أنـت».. قبلة

«طوووووويلة» طبعتها في باطن كفي الأيسر -لأنها تدرك كرهي يمناي- .. لم أشأ أن أخبرها أن صاحبة الإهداء هي أمي.. أكملت عنها «الدندنة» وفقا لاختياراتي ومنطقة نفوذي.. وتركتها لتدفع «فاتورة الليلة الأخيرة» و «أعدت ترتيب المساء بما يليق بخيبتي وغيابها».

قفزة أخيرة في حضن الموت

أبي لم يحب أمي، التاريخ يؤكد هذا.. قبل انتهاء خدمته العسكرية تحدث مع أمه عن الزواج.. جدتي لأبي باركتْ حلم الابن.. ووضعت فوق مباركتها تلك اسم أمي.. وقد كان..!

أبي لم يبك أمي عندما ماتت في عامها الخامس والثلاثين، انتظر أربعين ليلة.. تقبل العزاء فيها بـ«صبر واحترام»، وفي الليلة الواحدة والأربعين أدخل علينا زوجته الثانية.. وقال «أمكم ماتت».

أبي لم يمنحنا يوما لحظة صدق يتحدث فيها عن أمي، انزعج عندما وجد صورتها في إطار صنعته أختي الكبرى في إحدى حصص «التدبير المنزلي»، علق على الأمر: «اللي راح ما ترجعوش الصور».. ترك الإطار ستة أيام كاملة وفي اليوم

السابع أزاحه لتتوسط صورة «عبد الناصر» الصفراء جدار غرفة الجلوس.

أبي تركنا في كنف أمه سنوات سبعًا.. عجافًا كانت علينا، وعليه توقعنا أنها سمان، لم ينجب من وريثة «سرير أمي» وغرفتها، تركها في العام الثالث، وتزوج بـ«الثالثة».. ابنة عمه الأرملة صاحبة الفدادين الخمسة.

أبي بلغ الخمسين ولم تظهر شعيرات بيضاء في رأسه.. خالتي تندرت على الأمر -كعادتها- قائلة: «يا ولدي ناس أبوك ودانهم عريضة..»!

حاولت أكثر من مرة التأكد من مساحة أذن أبي، فجدتي لا تظهر من جسدها إلا ما يناسب «شرع الله».. عماتي انقطعن عن الزيارة بعدما قررت جدتي لأبي حرمانهن من الميراث، وتوزيع الفدادين العشرة بالتساوي على أبي وإخوته الثلاثة.. وقالت: «الطين لأ.. والعوض فلوس».

أخي الأكبر «الخالق الناطق» أبي، تركني أعبث في أذنيه ساعة كاملة، استخدمت يدي لقياس مساحتها، وعندما فشلت استعنت بـ«مسطرة أخي الأصغر» .. وفي النهاية وجدتها عادية لا زيادة فيها تشي بطول العمر، أو نقصان

يؤكد أنها «أذن أبي».

أخي الأكبر يحب مادة «الأحياء».. بعدما أدركني التعب وفشلت في التحقق من مقولة خالتي، أعطانى قصاصة ورق كتب فيها ما نقله من أحد كتبه المتناثرة في أرجاء غرفته:

«ربما لم يعر أحدنا اهتمامًا كبيرًا لشكل أذنيه، ولكن إذا نظرت في المرآة وجذبت أذنيك إلى الخارج فسوف تلاحظ أن إحداهما مختلفة قليلًا عن الأخرى. والأكثر من ذلك أن كل واحدة من أذنيك تختلف عن أذني أي شخص آخر.. يرجع ذلك إلى أن أصل الأذن هو ست نتوءات صغيرة تظهر على كلا جانبي الرأس بعد خمسة أسابيع من حدوث الحمل، ثم تبدأ هذه النتوءات في التلاحم تدريجيًّا. وبينما ترسم الجينات الشكل العام للأذنين، تؤثر بيئة الرحم -التي تتضمن مثلًا وضع الجنين- على الشكل الذي تظهران به. وفور أن تتشكل الأذن لا يتغير شكلها أبدًا مع نمونا، ونموها، ومع تقدم العمر».

«بيئة الرحم».. جذبتني الكلمة، تذكرت أمي، دافئة كانت، حضنها .. حديثها .. فرحها.. وحزنها أيضًا، دائمًا يغلفها الدفء، لكن جدتي لأبي جامدة دائمة، لم تبك ابنتها

الكبرى عندما رحلت، ولم تجلس في عزاء أمي بعد اليوم الثالث، لم تهتم يومها لـ«كلام الحريم»، يبدو أنها كانت تبحث عن «وريثة سرير أمي» .. وقد نجحتْ. رحمها بالقطع كان باردًا جداااااا.

خمسة عشر يومًا قضاها أبي وحيدًا في غرفته، في الخمسة الأوائـل رفض الطعام، اكتفى بما يبقيه حيا، فى العشرة الأواخر كنا نسمع نحيبه فى ظلمات الليل، ماتت أمه.. تقبل العزاء فيها منكفئا على وجهه، أذكر اليوم هذا جيدًا، الخرس أصابه بعد ساعات قليلة من وصول نبأ الإغماءة التي حدثتْ لها.. تملكه شيطان الصمت عندما أخبره «دكتور الوحدة» أن والدته أصيبت بـ«جلطة»، تكهرب الجو في القرية عندما أدركنا أن الأمر تجاوز مرحلة الجلطة،وأصيبت جدتي لأبى بـ«حاجة في المخ»، فمها انحرف قليلا ناحية اليسار.

لم يذهب أبي لرؤية أمه في مستشفى المركز، أعد لنا «جدول» بالتناوب على متابعتها، وجدتها فرصة سانحة لمتابعة «أذنها»، وهنت جدتي كثيرا، ظِل غرورها انكسر بفعل «غروب المرض»، حالتها استقرت أيام، وتدهورت في ساعات.

منتصف يناير.. ماتت جدتي لأبي.. في الواحدة بعد

منتصف الليل أخبرنا الطبيب المناوب برحيلها، المسافة بين قريتنا والمركز أبقتها حتى صباح اليوم التالي، تحرك موكب الجنازة، مررنا بالجسد على البيت الكبير، منحنا روحها دقائق عدة للاستراحة في كنف «بيت العيلة» حملناها إلى «الجبانة».. أخي الأكبر لم يترك الجانب الأيمن من النعش.. الأصغر ترك الجنازة في منتصف الطريق، وعاد ليطمئن إلى أن ترتيبات «العزاء» تمت كما يليق بأم أبيه، وأبي اختفى.

استقبلنا على مدخل «الجبانة».. أعد قبرها بيديه.. رش ماء على حواف القبر، تلا الفاتحة على روح أبيه، وأخته، وانتظر مجيء الوالدة.. تلقفها من بين أيدينا، نزل وحيدا معها إلى القبر، أزاح بيديه المعروقتين التربي، وقال «سيبونى معاها شوية».

كل من حضر لحظة التشيع انصاع لأمر أبى، هم يدركون علاقة الحي بالميت.. 10 دقائق كاملة قضاها في ظلام القبر، خرج متربا، وجهه لا لون له .. نظر إلينا .. وغادر.

عاد أبي للحياة بوصية أمه.. تزوج للمرة الرابعة، وعندما واجهه عمه الأكبر وهدده بأخذ ابنته ألقاها في وجهه، ووقف صامدا أمامه «دى وصية أمي.. عاوز إيه.. وفدادينك خدها..

وبنتك مراتي.. لو عاوزة تمشي خدها كمان».

انقطع أبي عن زيارة قبر أمه، بعد أن ألقى بذرته في رحم زوجته الرابعة.. تسعة أشهر وجاءت إلى عائلتنا «فرحة».. لأول مرة أبي يتراجع عن وعد قطعه، أقسم أن المولود إن كان أنثى فستكون «سكينة»، والولد نحن نعلم أنه سيمنحه اسم أبيه.. غريب أبي جدا، لم يمنحني أنا وأخي لقب أبيه.. هل كان يعلم أن أمي ستموت.. أمه ستموت .. وامرأته الرابعة ستكمل مسيرة «شجرة العائلة» ؟!

لوليتا (1)

اطمأنت لمكانه الصحيح.. ألقت نظرة أخيرة عليه.. قبل الخروج للحاق بميعاده، 4 سنوات لم تتأخر يومًا على ميعاده، دائمًا كان يمتلك رفاهية التأخير، لم تشغل بالها بسؤاله يومًا عن منطقِه في أن يأتي متأخرًا إليها، هي تدرك أن موقعه الوظيفي يمنحه حرية في التحرك، ورغم هذا يأتي متأخرًا...!

«أنا اتربيت على إيديه».

جملة لم تمل من تكرارها عندما تصل مسامعها أحاديث تشير إلى العلاقة التي تربطها به، في البداية كانت ترى الاقتناع في عيون صاحب السؤال، تدريجيا فقدت الثقة في الإجابة، وفقدت قبلها ما كان يجعلها واثقة من حجة «الإيد اللي ربتها»..!.

بعد عودته من إحدى رحلاته الخارجية منحها «خلخالا»..

(1) اسم علم مؤنث إسباني، أصله «دولوريس: DOLORES» فخففوه فقالوا: لوليتا، ولولا. معناه: الأحزان، الأسى، الأسف. وبعضهم يشدِّد التاء وصوابه تخفيفها.

طبعت قبلة على جبينه... يحب هو القبلات عندما تكون بهذا الشكل.

أعقبت قبلتها بضحكة.. يصاب بالجنون عندما تلوح طفولتها وسط ضحكاتها.

«خلخال.. ألبسه إزاي يعني؟!».

قالت له.

يكره المناقشات المملة.. الأمر لم يستغرق كثيرًا.. أمسك قدمها اليمنى، انحنى، داهمته آلام عموده الفقري، لعن عقله الذي لم يذكره بارتداء «حزام الظهر»، درجة الألم ارتفعت أكثر.

«آه»

مؤلمة قالها.

«معلش.. خليني أنا ألبسه لنفسي».قالتها بعدما لمحت انقباض عضلات وجهه.

غضب منها، تحايل على الألم، وطبع قبلة طويلة في باطن قدمها، وألبسها الخلخال.

«يا سلام .. الجو حلو.. ينفع تلبسي الخلخال وبس».

لا يتعب في رحلة البحث عن فرصة لرؤيتها عارية.. في كل مرة يتذكر عندما أمسكها بين يديه، بعدما أجبرت ظروف

العمل والدها عدم حضور لحظة ميلادها، أحبها يومها، الأب الراحل منحه شرف اختيار اسم الابنة التي ولدت على يديه، قرر أن تكون «جاسمين»... وقد كان.

كما يموت الناس.. مات أبوها، الحياة كانت كريمة معها لأقصى الحدود، الأم رفضت الزواج، الأب الراحل أوصاه بالعائلة خيرا، كان صاحب اختيار حضاناتها، علمها كيف تكتب اسمها، وضبط نفسه متورطا بمنحها اسمه بديلا عن الأب الراحل، لكنه تراجع، استخدم «أستيكة» خاصة بها، محا اسمه بهدوء، لكن «أستيكته» لم تمر على ما سجله عقل الطفلة.

«عمو..» أعجبه رنين الكلمة في أذنيه عندما بدأت تنطق، مرات قليلة جدا أخطأت -عن قصد- وخاطبته باسمه مجردا، لم تكن تخطت السادسة وقتها، لكنها كانت جميلة، في الثامنة أصر على أن تناديه مجردًا هكذا، لم يستجب لنصائح والدتها «جاسمين.. ممكن تحرجك». لفتت نظره إلى الأمر في يوم «الخروجة» الأسبوعي.

التاسعة.. العاشرة ..الـــــــــــــــــ.... استمر في متابعة رحلتها مع الأيام، حتى جاء صباح ينايري، هاتفته صباحا «اعمل حسابك .. عاوزة أعمل البطاقة».

استغل علاقاته المتشعبة في وزارة الداخلية، لواء تحدث مع لواء، بدوره تحدث مع عميد، نقل التوصية إلى العقيد، الذي سلمها لأمين شرطة، لم يخجل من الحصول على الإكرامية وهو يسلمه بطاقتها الأولى.

«كبرتي يا جاسمين».. قالها وهو يزيح عينيه عن خانتي النوع والحالة الاجتماعية «أنثى – آنسة».

أصرت على الالتحاق بكلية الألسن.. أول مرة تختلف معه، جعلها تحب الإسكندرية وتكره شرم الشيخ.. أصر أن تتقن الألمانية، وعندما واجهته برغبتها فى إجادة الفرنسية سخر منها، وعندما قررت ارتداء الحجاب، وصل معها لمنطقة وسط «ع الموضة»، لكن سنواته الـ45 لم تستطع الصمود أمام جموح عشرينياتها. «الأحلام لا تعترف بالخبرة.. الخبرة لا تصنعها الحكايات.. لازم أدوس في الطين عشان أعرف إنه ممكن يوسخني». ردها يومها ألجمه، فذهبت إلى الألسن...!

49 عامًا.. طبعت قبلة على خده الأيسر، عندما فاجأها بحضوره حفل تخرجها، يتذكر اليوم جيدًا، قبلتها كانت مختلفة، انتشى بتلامس شفتيها الندية على خده اليابس.. انتشى لدرجة حرمته من متابعة الحفل، رحل سريعًا، وغاب .. «سافرت

لندن». رسالة قصيرة جدًا أرسلها على «الواتس آب»، لم تظهر خلال الأربعة أشهر التي تلت توقيت الرسالة العلامة الزرقاء التي تشير إلى أنه على قيد الحياة.

عاد.. صباح أحد الأيام وجدته في كامل أناقته... لم تتحدث.. دخلت باب السيارة المفتوح، في أقل من دقيقة لمحت البريق في عينيه.. لم تلحظ الأمر طوال السنوات الماضية.. عيناه تبرقان بكلمات أكثر لمعانًا، في أول منحنى جانبي أمسكت يده، قبلتْ باطنها، أطالت القبلة، وقالتها هي: بحبك.. وده بجد..!

لم يكن ينتظر أكثر من هذا، أعاد على مسامعها الكلمة مليون مرة، همس في أذنها في الممر المظلم لقاعة سينما «مترو»، ضغط على يدها عندما كادت أن تتعثر وهي تصعد معه سلم مطعمه المفضل، رغم أنها تعثرت كثيرًا على السلم ذاته، وأنقذها من السقوط كثيرا أيضًا، لكنها هذه المرة لم تشكره، أعادت الضغطة على يديه، وفي أول فرصة اقتربت منه لأقصى مسافة ممكنة، واكتفت باستنشاق عطره.

... وأشتهي وصلها

أعطيتها ظهري بعد نظرة خاطفة، مقصودة، لأعلى ركبتها.. يومها أدركت أنها امرأة «فوق العادة».. أما هي أدركت أنني «فلاح جلف».. النظرة لم تتجاوز منتصف اللحظة.. تحدثت معها بملايين الأحرف، قلت لها «أنت الغواية في اكتمالها».. لم ترد.. فأكملت «أنتِ الشيطانة التي أخرجت أبي من جنته».. واجهتني بـ«نظرة فقط».. استطردت بعدما تملكني «ملاك الصراحة».. وزعقت فيها: مختصر الكلام أنتِ دنيا.. من يغلب يركب..!

منتصف لحظة.. وافترقنا.. عدت لـ«التخبيط على الكيبورد».. وتراجعت هي لـ«بيت الغواية».. انتهيت من عملي سريعًا.. الساعة تجاوزت الخامسة بأربع وعشرين دقيقة.. الوقت ما زال فيه متسع لـ«لقاء ثان».. استجمعت

قواي.. سيجارة «ملغمة» كفيلة بإنزالي على «أرض النشوة».. انتهيت منها سريعًا.. تركت جسدي يستريح قليلًا على المقعد «الهزاز».. فـ«أنا رجل مهم».. والمقاعد الثابتة لا تصلح لمن يعشقون الطيران مثلي.

باق من الزمن ما يمنحني نظرة ثانية.. ستكون هذه المرة شافية كافية، قلتها لنفسي و أكاد أنتهي من «الكوريدور».. كتف قانوني منحني جزءًا من الثانية لأقف.. لن أرد فـ«خدي الأيسر» دائمًا مستعد لتلقي الصفعة الثانية والثالثة.. ووو.. إلى ما شاء الضارب.

خرجتُ من معركة «الكتف» مهزوما -كعادتي- فـ«طوبى للرحماء والضعفاء»..هو قال لنا هذا وأنا دون أن أجري تجارب للتحقق من النتائج قلت «آآآآمين».

أكملت مسيرتي لـ«أرض الفردوس».. هاجمني من الخلف هذه المرة، يدرك جيدا أنني أكره المواجهة، المكسب لم يكن حليفي يوما في أية من جولاتها.. يتقن هو اللعبة.. 3 سنوات ولم يمل يوما من تكرارها ولم أستطع يوما منعه.. أحبه ممكن.. أخشاه أمر مؤكد لأنها «الحياة» وهو يمتلك مفاتيح أبانا الذي في المكتب المكيف المنعش.

«مش وقته يا أخي..»

تركته محاذرا من هجمة ثانية أشد وطئًا.. تخلى عني بسهولة يحسد عليها، وأطلق صوتا من أنفه.. مؤكد أنه يعرف وجهتي.. واتبع صوته بكلمته -شبه المعتادة- «الله يسهلو يا عم».

رجل «المكتب المنعش» لم يصل.. رائحة برفانه لم تحتل الجزء الذي يحتله باب غرفته في «الممر».. غيابه كان «بشرة خير».. فطالما هو «خارج نطاق الخدمة».. إذن هي تمارس عادتها السرية، العلنية، تضبط حاجبها الأيمن، فالأيسر دائما لا يحتاج إلى «تمريرة ملقاط».. تراجع أنوثتها، وللتأكيد، تعيد النظر لكل سنتيمتر في نصفها العلوي، وفي النهاية تطلق ضحكة الرضا والثقة.

برنامج يومي حفظته جيدا، أربعة أو خمسة أيام فقط تتجاوز خطواتها، فـ«الطبيعة» تجبرها في تلك الأيام على الاحتماء بالمقعد.. الاستعانة بـ«كبسولات الكيتوفان» لتسكين الآلام.. وشنطة بلاستيك سوداء لا أدري رغبتها في إظهارها للجميع كـ«إشارة حمراء» تحذر السائقين والراغبين من تجاوز خطها الوهمي.

الجميع يعرف علاقتها السرية – العلنية، التي تربطها بـ«الرجل مكيف الهواء»، هي تدرك الأمر جيدًا، وللحق، تتعامل وفقا لمعطياته، نبرة صوتها، مشيتها، عندما تحتل رائحة برفانه الممر المؤدي لـ«بقية مكاتبنا»، نوعية الملابس التي ترتديها، إجازتها الأسبوعية أيضا أكدت لنا أنه «في الأمور أمور».

عرفنا أنه يعشق اللون الأزرق، السماوي... عرفتني أنه يدعى «تركواز» عندما حاولت إبداء إعجابي بـ«البادي الجديد».. نطقتها بـ«دلع متقن».. لكنها احتفظت بـ«خاصية لمس المنتج» لمن يمتلك المقدرة على إخراجه من «الفاترينة».. المرتب لا يكفي.. والظروف لم ولن تكون يومًا مواتية.. ومنذ سنوات أنا أيضًا أحب مشاهدة الآخرين من «فاترينتي الخاصة».. فلن أرهق روحي بـ«حلم اللمس» ولكن دعني أتبع نصائح من سبقوني «ما لا يدرك كله.. لا يترك جله».

لم تكن تدخن في أول إطلالة لها... «منه لله... الأوفيس بوي» الذي وسوس لها بأنها «الخالق الناطق» غادة عبد الرازق، فما هي إلا أيام قليلة، وأصبحت «أشجان» في «كلمني شكرا»، رغم أنني شخصيا كنت أتمنى أن تكون

«الحاجة زهرة» فربما أصابتني يد المأذون فى إحدى زيجاتها.. كم أنا سخيف؟!

في البداية لم أكن تعرف أن النساء لهن نوع معين من السجائر، فصدورهن لا تقوى على دخان ملكتنا الجميلة «كليوباترا»، أتذكر يومها، بعدما لمحت فى حقيبيتها علبة «لايت» أنني غامرت، بعد جولة سريعة في «وسط البلد»، واشتريت لها «خرطوشة»، وأرفقت معها «ولاعة ذهبية».

زيـارتي لـ«وسط البلد» جعلتني في آخر الصف، فما وصلت لمكتبها إلا ووجدت عشرة أنواع سجائر، وعلبة «سيجار» فاخرة على مكتبها، وفوق مقعدها، يومها انتحيت بـ«خرطوشتي» ركنًا قصيًا، وحمدت الله أن «المارلبورو الأبيض» يصلح للاستخدام الذكوري.

«أكرهها.. وأشتهى وصلها.. وإنني أحب كرهي لها».. رنة موبايل طاردتني قبل الخطوة الأخيرة في «الكوريدور»، غريب أمرك يا نزار، معادلة صعبة وضعتنا أمامها، «نحب ونكره».. «اللؤم والزور» من مميزات الجمال.. حتى عندما حاولت مهاجمة المرأة أخرجتها رابحة، فالأكاذيب.. الجنون.. الثورة والشك، مرادفات تستخدمها بحرفية فائقة في حديثك

عن حبيبتك الجديدة، صنعت منها أسطورة كعادتك، وتركتنا نحاول تقليدك كعادتنا..!!!

«وجررت ضحكة من ذيلها».. يعجبني هذا المقطع.. «فأل خير» ستستكبر.. ولكنها في النهاية ستعانقني ولتكسر أضلاعي، فداها كل الضلوع، طالما ماتحتها حي ينبض.

«وددت إن طوقتها».. انتهت مسيرتي عند هذا المقطع، إنها الخامسة وأربعون دقيقة، ما تزال بحوزتي 450 ثانية، قبل أن تضغط بإبهامها معلنة انصرافها.. العشرات مثلي يحسدون تلك الماكينة.. الآلة الخرساء، الأصابع تداعبها كثيرًا، صباح مساء، الجميع يحترم ميعادها، يضغط بـ«خفة» على وجهها، ضغطة أقرب ما تكون «قبلة»، ينتظر جزءًا من الثانية، يحتضن ضوءها الأخضر بأريحية، وسرعان ما ترد بـ«**thank you**» هادئة، غير مصطنعة، وإن كانت مملة في بعض الأحيان، لكنها تبقى الشيء الوحيد الذي يشكرك في عالمنا هذا عندما تضغط عليه..!

أتذكر يوم أن حلت علينا صاحبة أجمل «**thank you**» في العالم... يومها مارسنا عليها طفولتنا الغائبة، نضغط كثيرًا، وننتظر أن ترد علينا بغير الـ«**thank you**»، وبالفعل،

جاوبتنا بـ«حنان آلي» لكنه ذو مذاق جميل قائلة «**please try again**».. أمومة كاملة، لم تعنفنا على الخطأ، لم تتأوه من «الضغطة الغلط»، لكنها منحتنا فرصة ثانية لـ«ضغطة محكمة».. وقد كان..!

أخيرا .. وصلت.. دقات قلبي منتظمة.. رتيبة.. ومملة أيضا.. إذن إنه لا يمكن أن يكون الحب.. عيني زائغة.. تخدير بسيط بدأ يصيب لساني.. أحب إحساس «التنميل» في الدقائق الأولى لمرحلة ما بعد الانتهاء من سيجارتي المفضلة.. إذن إنه أمر آخر لا علاقة له إلا بـ«حديقة الحيوان» المتسعة المترامية الأطراف التي أتأرجح منذ 40 عاما بين أغصانها.

شاشة جهازها سوداء.. كشعرها، جهازها كامل «بلا أي أثر للحياة».. يبدو أنها منحته «هدنة مؤقتة».. اليوم ترتدي «الجوب الجينز» الضيقة متجاوزة مرتفعات الركبة.. إذن هي بالقطع ترتدي «بلوزة أوف وايت».. أحبها في هذا «الطقم».. وأكرهها أيضا، لأنها لا ترتديه إلا في «الخمس العجاف».. وعندما تصطحب معها كيسها الأسود، الذي لمحته في يدها، بعدما انتهت من تثبيت «القطعة المجنحة» في مكانها الصحيح.

«أووووووووف» .. أطلقتها دون تردد وبكل ما أمتلك من حزن، زاغت عيني من جديد.. إحساس «التنميل» أعلن رأسي منطقة محتلة، لساني تحرك قليلًا، وعندما واجهتني، اكتفيت بقولي:

- «هو النهارده إجازة»..

لم تجب، تعمدت أن تظهر لي «كيسها الأسود» فارغًا وهي تضعه داخل حقيبتها، بجوار «إسدال الصلاة» ومصحفها المذهب وارد «الأراضي المقدسة».

بعد الـ 40

أغمضت عيني اليسرى.. أكرهها عندما تترك «شيش» أوضة النوم مفتوحًا.. تدرك هي كم كراهيتي لهذا الفعل، ورغم هذا، تمارس فعلها الشاذ كلما دق منبه «موبايلها» السابعة صباحًا.. حاولت مناقشتها في البداية.. إقناعها بأن شمسها تربك كل حساباتي الصباحية.. فردت يديها -كعادتها- وأكملت طريقها لـ«المطبخ».. وما هي إلا ثوان وسمعتها تنادي -متجاهلة أزمتنا الصباحية-: «أنت عاوز الفطار عندك ولا إيه».

في المرات المتتالية منحت نفسي «قليلًا من الصبر» وحاولت إقناعها بحقيقة مرضي.. يومها ما زلت أتذكره جيدًا، استعنت بـ«جوجل» وطبعت لها شرحًا وافيًا لـ«الاستجماتزم»، تركت لها الورقة على «صينية الفطار»، أخذت طريقي للحمام، في محاولة مني لأمنحها لحظة هدوء، أنهيت تدخين السيجارة الأولى..

«الأهرام» لم تعد تجذبني صفحتها الأولى، ورغم هذا منحتها 5 دقائق إضافية.

«أموت وأعرف أنت ليه بتحب تقرأ الجرايد في الحمام».

.. الماكرة، وضع الورقة تغير، لكنها استعانت بـ«مكرهن».. قررتُ مجاراتها في «لعبة المكر»، وقلت:

«لأنه المكان الأفضل لمعرفة أخبار البلد دي»

صمتت 30 ثانية بالتمام والكمال، وعندما همت بالكلام، هاجمها «شبح الصمت»، وسمعتها تغمغم، وهي في طريقها للحمام «والنعمة أنت راجل ترللي» .

عدت -يومها- لـ«جوجل» وضعت وصفها لي في خانة البحث التي كشفت بدورها أن «ترللي» كلمة كويتية الأصل تعني «صاحب العقل الخفيف».. «وإيه اللي خلاها تعرف كويتي؟! ناقشتها بعد ثلاثة أيام في بلاغتها اللغوية، مدت «بوزها»، أكملت «تقطيف الملوخية».. لذت منها بـ«البلكونة».. تابعت خريطة الشارع.. المنحنيات تزايدت بصورة رهيبة، أول يوم لنا هنا كان الشارع «خطا مستقيما».. الزمن فعل فعلته معه، منحه تقاطعًا، ثم وهبه ناصية نظيفة.. تلاها بـ«صندوق زبالة».. وكشك سجاير لـ«مسجل خطر أعلن توبته فى مباحث أمن

الدولة».. وتوالت بعد ذلك الغزوات..«غزوة الصناديق».. موقعة «القطط».. ومعركة «فرشة الجرايد» و«الخضار».. حالة من الانشراح انتابتها -اليوم تذكرتها- عندما بدأت -وفقا لوجهة نظرها- الحياة تدب في الشارع، تحدثت معها طويلا في أننا صرفنا «تحويشة الإعارة» بحثا عن الهدوء، تحدثت -عندما كان صوتها أمرًا عاديًا في المنزل- عن «الونس».. واجهتها بـ«الدوشة والناس الواطية».. وبقية السيناريوهات المتوقعة من تحول «الجمعة» لـ«سوق في الشارع».. طعنتني بجملة لن أنساها: «وأنت شايل هم السوق ليه .. أنت مش بتصلي أصلا».

«لماذا يتغير الزوج مع زوجته بعد الـ 40 ».. عنوان أتحفتني به «ذاكرة جوجل الأرشيفية».. دون تردد أعطيت أمر طباعة.. تركت الورقة على «صينية الشاي».. وخرجت.

ولد الحلبية

أبي لن يكشف سر كراهية جدي لأمي له، فقد رحل وما زلتُ أدور في رحمها بحثًا عن نقطة ضوء تلهمني مزيدًا من الصبر.. مات أبي لأنه أراد أن يموت.. كان جدي لأمي يلعنه كثيرًا.. يوما وقفت أمامه ملأت فمي بلعابي وسكبته بكل حقد على وجهه.. أعطانى ظهره واكتفى بقوله «هاتجيب الأدب منين.. نجس ابن نجس».

لماذا تزوجتِ يا أمي من النجس.. ويعني إيه نجس؟.. على غير عادتها.. منحت «لمبة الجاز» استراحة من الضوء.. وضعتني بين فخذيها وتلبسها شيطان الحكي.

مشاهد كثيرة مشوهة ما تزال ملتصقة بالذاكرة.. أبي صورة غائمة، من زمن الأبيض وأسود، في محفظتي... أمي دائما كنتُ أعاملها بحيادية، فأبوها يلعن أبي.. وأنا أكره أباها، وهي بنت

أبيها، وأنا ابنها، معادلة صعبة كان الخرس العائلي حلها المتاح.

ثلاثة أسابيع قبل أن تنتهي حياة جدي لأمي.. ليلة العيد.. أمي حاولت معي.. عاندتها لبرهة.. تظاهرت بالنوم، وفي النهاية كان لا بد أن أذهب معها، فـ«بطن جدي» ما زالت تكبر.. بعد سنوات عرفت أنه «الكبد».. لم أشمت في موته، لكنني حزنت عندما علمت أنه من الممكن أن يكون شهيدًا، لأنه مات بـ«داء في البطن».

قالت لي أمي ليلتها .. أبوك تركنا ليتزوج «حلبية».. رغم أنني لا أعرف ما الأزمة فى الزواج من «حلبية» لكنني قلت لها «ها وبعدين»...تنهدت... سرحت... وأنا ركبت «حمار النوم».

الـ«حلبية».. زوجة أبي كانت الأقرب لقلبي.. منحتني مناعة من «لعنات جدي» و«عتاب أمي».. ومنحتها بعدها بسنوات طويلة تذكرة لـ«الأراضي المقدسة».. وأصبحت «الحلبية» المغضوب عليها من عائلة «جدي لأمي» الحاجة «سِتُهم».

أمي رحلت بعد أبيها بسنوات سبع.. كانوا عجافًا.. مات أبوها.. انزوت في حجرته «الجوانية»... أخرجتنا جميعا من بيته... قالت «إنتو ولاد أبوكو.. ملعون فى كل ملة وكل كتاب».. وذهبنا لـ«بيت الحلبية».

سعدية أختي تزوجت وتركت «البلد باللي فيها».. بقيت مع «أمي الحلبية» سنوات عشرًا.. وفي ليلة قررت هي أن أغادر.. فقدت الأمل في أن ينصلح حال العائلة معي.. أتذكر ليلة الرحيل تلك بكل تفاصيلها، فكت «ضفيرتها» البيضاء، المحملة بـ«بقايا الحنة» .. نزعت عنها مفتاح صندوقها النحاسي.. خطوات عشر بالعدد وكنت بعدها أضع بين يدي 200 جنيه.. منحتني إياها وقالت «اتوكل ع اللي خلقك».

24 أغسطس 1982.. توكلت على «اللي خلقني».. الركوبة أوصلتني إلى موقف مواصلات المركز.. سيارة متهالكة وجدت لمؤخرتي مكانًا فيها.. 3 ساعات وننتظر المؤخرة الأخيرة لـ«اكتمال العدد».

انزعجت جدا يومها.. فالسفر كان حتى ساعات قليلة مضت خارج حساباتي، كنت أطمح لـ«ميراث زوجة أبي».. 3 أفدنة وبيت كبير.. وأخت لا تريد من أمها أية ذكرى.. وابن ثالث قرر من البداية أن يكون «ابن ليل» فكتب عليه ألا يرث أحدًا وألا يرثه أحدٌ.. إذن كانت حساباتي ممكنة ومتاحة.

نصحتنى «الحلبية» بزيارة بيوت «ولاد النبي وعيالهم».. دورت على المقامات من السيدة زينب إلى «نفيسة العلم» وأدركني التعب

أمام «مقام ابن بنت محمد».. رأيت فيما يرى النائم أن الجانب الأيسر من الجلباب ممزق تماما.. محفظتي ملقاة بجانبي.. صورة أبي.. ورقة عنوان صديقي الشيخ عبد الصادق، في عين شمس، ولا شيء آخر.

فعلا.. لم تأخذني سنة ولا نوم، لكنها طبائع الأمور في القاهرة.. كرهتها من اللحظة الأولى، وكرهت مقاماتها، دائما أتذمر من حماقاتي الصغيرة، وحكم الزمن، دائما كنت الأحمق، وكان الحكيم يقف على الجانب الآخر من نهر حياتي وما بيننا ماء على «مدد الشوف».

قضيت الساعات الثلاث بعد «سرقتي في مقام الحسين» في طريقي لـ«عين شمس».. رفضت بشدة أن أرى شمس القاهرة تصعد لـ«كبد السماء» وأنا مسروق فيها، جنيهات عشرة فقط ساهم بها «عبد الصادق» في أزمتي المالية الطارئة، أخذتها وانتظرت كثيرا على محطة «باب الحديد».. لم أستجب لملاحقات «البيض والسميط»، لكنني وجدتها فرصة لأن أثبت رجولتي مع البنت المتشردة، التى وجدتها أمامي في حمام الرجال، أخذتها دون أية كلمة، اتفقت معها على الرغبة بنظرة، واقتحمتها متجاهلا رائحة جسدها النتنة، وتركت بذرتي فيها ورحلت دون حساب..!

رحلة العودة لم تكن ذات أهمية.. القطار توقف كثيرا في «باب الحديد»، تحرك بعد مرحلة التوقف تلك لـ«الجيزة».. هناك رأيت عشرات الثياب الممزقة من الجانب الأيسر.. لماذا نضع أموالنا فوق قلوبنا..؟!

بني سويف ثم المنيا.. فأسيوط وسوهاج، وها أنا أقف على باب القطار منتظرا التوقف في «قنا».. أقنعت نفسي بأن سيدي «القناوي» ناداني.. هربت من النداء في المحافظات الثلاث، وعندما مررت من سوهاج أدركت أن «القناوي» تملكني.. وجانبي الأيسر ممزق، فأنا «في أمان الله» حتى وإن ركبت «حمار النوم».

السابعة مساءً.. خلعت حذائي وأنا أكمل بقية سلامي لـ«سيدي صاحب المقام».. لم أستطع الجلوس.. ألم مفاجئ في الجانب الأيمن.. أقنعت نفسي بأن «البول انحشر» وأحتاج لـ«فك الحصرة».. لكن الألم «قعد واتربع» في جانبي الأيمن.. لماذا لا تأتي آلامي إلا من بين يميني ويساري.. لم أتألم من المواجهة يوما.. تحاملت على نفسي.. اخترت «ميكروباصا» صاحبه «بلدياتي».. في عجالة حكيت له قصتي من «الأيسر والأيمن».

بلدياتي لم يضف جديدًا.. «تف» في الأرض.. قال «ماتخافش

من الشرموطة.. بس اعمل حساب العرص اللي مسرحها».. شتم «ولاد القحايب» و«الكل كليلة».. تمدد في «كابينة المكيروباص».. تلبسته روح «الزناتي خليفة».. فهدأت من غضبه وأخبرته أن «أخد الحق صنعة».. كاذب أنا.. وهو كاذب أيضًا فـ«لن آخذ حقي» وروح «الهلالي» لن تتمكن من الوصول لـ«الكنبة» الأخيرة في سيارته.

غريبٌ أمر أمي «الحاجة الحلبية».. وكأنني لم أرحل.. لم أسرق.. لم أتألم .. لم أغب عنها في «غربة».. قدمت لي طعام العشاء، لمحت اليوم شعرها الأبيض، لم يطاوعني لساني لأسألها عن «هجرانها الحنة»، هي تحبها مذ كانت صاحبة شعر أسود، تجهزها قبل طلوع الفجر، وتنتظر «الضحى» لتمنح شعرها «قبلة حمراء قانية تسر الناظرين».. حدثتني ليلتها عن أبي.. عن جدي لأمي.. لم تتحدث عنها، فـ«سيرتها» كانت على كل لسان..«ربنا يسامحك يا جدي».. تركتني بعد أذان الفجر.. قبل أن تعتدل مستندة لـ«عصا الليمون»، لفتت نظري إلى أنني أصبحت قريب الشبه لـ«جدي لأمي».. اختارت بطني لتقارن، وأنا اخترتُ مرضه لأتأكد أن «الشهادة» ستكون بانتظاري.. مثلما انتظرت «جدي لأمي».

نوافذ تتقن حفظ الذكريات

منحها ابتسامة رائقة.. شبك أصابعه الكبيرة بأصابعها الخمسة الصغيرة.. ترك يدها الثانية تحاول ضبط رسم القلب على زجاج باب عربة المترو.. تعلمتْ أمر الرسم منه.. علّمها كيف تكتب أحرف اسمها على نافذة عيادة طبيب الأسنان.. وبعد أسبوع، وجدها تكتب أثناء انتظارهما دور «إعادة الكشف» اسمها واسمه، على النافذة ذاتها.

علمته أن يحب الشتاء، قبل لقائهما الأول، لم يكن الأمر يعني له الكثير، كان يستمتع منه فقط، بالأبخرة المتصاعدة من فمه، يكتب كل ما يريد ألا تحفظه الأوراق، يكتب على مرآة الحمام، في المترو، كان يحاول دائما الابتعاد عن النوافذ والأبواب الزجاجية، لأنه لا يتمكن من السيطرة على نفسه أمام نداء الصراحة الذي يلوح فوق الأسطح اللامعة، ترهقه

خيوط البخار التي تتحول لـ«مجرى مائي» صغير، المتكونة من زفرات العشرات الذين يلقون بأنفاسهم الدافئة على جدران العربة، ومقاعدها، ونوافذها وأبوابها.. لكنها عندما جاءت قلبت الأمور.. لبى النداء، وبدأ يخط بأصابعها وأصابعه أحلامها على الزجاج البارد.

في العام الرابع لهما سويا، بدآ يستمعان للموسيقى، كان في بادئ الأمر يمنحها جزءًا من الـ«مزيكا» التي يحبها، دون أن تدري تركت أقدامها تغوص في أرض نغماته، أحبت كل الأغنيات التي يحبها، حاولتْ أن تضبط حاجبها على وضع حاجبه عندما يستمع لصوت «أم كلثوم» وهي تشدو «وأبات أفكر في اللي جرالك واللي جرالي».. أتقنت بعد محاولات عدة تجاهل كل النظرات التي تطاردهما، وانغمست -بهدوء- في بحر فيروز وهي تطربهما بـ«كيفك أنت».

منتصف العام ذاته، بدأت تطالب بأغنيات خاصة بها، كان كريمًا معها، عندما أفسح لأحلامها مساحة كافية على ذاكرة «الآي بود»، اختارا سويا اسم ملف أغنياتها، حاول أن يقنعها أن يكون الأمر كله تحت اسمها، لكنها طلبت منه بجدية غير مقنعة أن تمنح الملف رقم «6»، وعندما ارتفع

حاجباه متسائلًا عن سر الرقم، قالت: عندما نصبح في السنة السادسة سأغني لك.. تذكر هذا الأمر جيدًا.

في العام الخامس، تنبهت إلى أنه لم يعد يتحمل الوقوف طويلًا جوارها، تقلصات رأتْها أكثر من مرة تعلو قسمات وجهه، عندما يفشل في إراحة جسده على أحد المقاعد، بدأت تتابع تزايد ساعات نومه، حالة الكسل التي لم يكن يقبلها من أحد، وتحديدًا هي، في أيام الجُمع، أصبح يدمنها، لم تشأ «تعكير مزاجه» بالإلحاح لمعرفة السر الذي طرأ على حياته.. واكتفت بمتابعة الأمر، ومنحه ألف دعاء بأن يعود لما كان عليه في عامهما الرابع.

بدأت تلمحه في الأسابيع التالية يضيف أنواع أدوية جديدة لـ«دولاب الدواء» الكائن في الحمام، لا تتقن قراءة اللغة الإنجليزية، ولم تكن هناك رسومات على العلب التي بدأت تتكاثر وتفرض سطوتها على المكان، تتيح لها أن تتنبأ بماذا أصيب ليتناول تلك الأدوية.. ولم تسأله.. يكره هو الأسئلة، واعتادت هي أن يخبرها الحقيقة كاملة دون أن ترهقه بأسئلتها.. أصبحت مثله.

لأول مرة يقرر أن يتركها وحيدة، أعد لها كل الأشياء

المطلوبة لسهرة سعيدة لها أمام التليفزيون، تحجج لها بأمر طارئ يستدعي نزوله منفردًا، تأكد أن هاتفه المحمول «100٪» شحنًا، قبل أن يطبع على جبينها قبلة، ويودعها بجملة «مش هتأخر» التي لم تلتقط منها سوى كلمة «هتأخر» ونصفها الأول ضاع وسط صوت الأسانسير يعلن وقوفه بالدور السادس.. حيث يسكنان.

بعد خمس دقائق من غيابه أطفأت التليفزيون، علمها في عامها الرابع كيف تتوضأ، توضأت اطمأنت أنها لم تملأ أرضية الحمام بمياه، غير الكمية المعتادة أن تكون لحظة وجودها داخله، لم ترتب شيئًا، ارتدت «إسدال صلاتها» الذي قال لها عنه يوم رآها لأول مرة فيه: «وإني في هواك أعبد الله»... وبدأت تدعو الله في سرها ألا يتأخر، سألت الله يومها عن الأدوية، عن الألم الذي بدأ يبدو عليه في الصباح، عن تأخره في النوم ساعات عدة.. تمنت من الله ألا ينساها، وعادت لتقول باكية «لينساني قليلًا وتذهب عنه الآلام ونعود كما كنا».

محاولته إخفاء ملف الأشعة الذي كان يحمله بين يديه فشلت، قفزت إلى حضنه قبل أن يحكم إغلاق باب الشقة،

ودون أن تدري انتابتها رغبة في البكاء، لكنها لم تبك، تمسكت به أكثر، حاولت عناد الطبيعة، وفردت ذراعيها حول خصره علها تستطيع احتواءه لكنه رفعها بيديه وطبع قبلة طويلة في مفرق شعرها، وقرر أن يخبرها الحقيقة كاملة.. قال:

الملف ده.. فيه أشعة، بتقول إني عندي ورم في المخ، لسه الدكتور محددش الورم ده خبيث ولا حميد.. كويس ولا وحش يعني، بس اللي قاله إني لازم آخد إجازة شوية، يعني أقعد معاك في البيت، ومش بس كده، ده أكد عليا إني آكل كويس، واهتم شوية بصحتي.. أنا عارف إني هموت.. كل الأبحاث اللي بتتكلم عن حالتي بتأكد ده.. أنا بحبك، وأنتِ عارفة إني بحبك، بس أنا هموت.. ممكن كمان كام سنة تستوعبي حكاية الموت، بس بصي يا ستي.. اعتبريني مسافر، أنت مش فاكرة «موفاسا» قال إيه لـ«سيمبا» قبل ما يمشي قال له أنا «مسافر.. ولما تحتاجني هتلاقيني».. أنتِ بقى من غير ما تحتاجيني أنا هكون موجود..».

لم تفهم غالبية كلماته، ركزت فقط في دموعه التي لم يستطع إيقافها، قبلته على خده، عادت سريعة إلى حضنه، و15 دقيقة كانت كافية لأن تذهب في النوم، وهو يحكي لها ماذا فعل

«سيمبا» عندما قابل «تيمون وبومبا».. نامت على حكاية العودة.

بالفعل.. مات في الشهر الثالث، ترك لها وصية بكل ما يمتلك، الشقة صارت لها، وجدت في الأوراق «أجندة رمادية» كان يكتب لها فيها كل شيء، من لحظة ميلادها حتى قبل وفاته بأسبوع، حدثها عن اللحظة التي أمسك بها بين ذراعيه، تكلم معها عن أمها، حكى لها عن قصة الحب التي ربطت بينهما، وكيف تم الطلاق، وكيف أقنع والدتها بأن تبقى هي معه، بعدما أصبح انفصالهما أمرًا لا بد منه.. كتب لها عن أزماته كافة، واكتشفت أنه كتب لها عن أحلامه.. وفي الرسالة الأخيرة تمنى عليها أن تعود لأمها.. تكمل سنواتها هناك على الجانب الآخر من العالم، وتتذكره كلما رسمت قلبًا على باب المترو أو نافذة عيادة طبيب أسنانها.

أصحاب النظارات لا يصلحون للذكريات

«لا أمتلك صورة واحدة لطفولتي.. مراهقتي.. وسنواتي التالية حتى وصل قطار عمري لـمحطة الثلاثين»..حقيقة أطلقتها في وجه صديقي بعدما امتد بنا الحديث إلى منطقة الذكريات، حدثني عن صورة أبيه الشهيد التي لا تزال حاضرة في حائط غرفة «المسافرين» المواجه لباب الشقة، وانتقل بالحديث إلى صورة حبيبته الأولى الـ «4×6» التي يحتفظ بها في مكان سري بمحفظة جيبه، وصورة طفله الأول، لكنه لم يتطرق إلى الصورة التي تعلقت بها عيناي، منذ دخلت بيته، صورة زواجه، وأصابني -كعادتي- الإحراج من سؤاله عن السر وراء تجاهله أمر الزواج وصورته مع المرأة التي طلقها في عام زواجهما الخامس، ولا يزال يحتفظ بالصورة التى تجمعهما في منتصف كل شيء بحياته.

لم يجد الذهول مكانا له على وجه صديقي عندما كشفت له سر عدم امتلاكي أية صور يمكن أن تمنحه -غير حكاياتي المقتضبة- شيئا عن سنواتي الماضية، يعرفني جيدا هو، من الممكن أن السهولة التي مرَّرْتُ بها أحرف الجملة، والصوت المحايد الذي خرجت به كلماتي منحاه الأسباب الكافية للمرور على محطة صورة الماضي دون أية إشارة.

في الحادية عشرة والنصف مساء، بعدما تأكدتُ أن نوبة الاكتئاب فارقته إلى حين لن يكون بقريب، استأذنته في الرحيل، لحقت المترو الأخير، تعلمت خلال سنواتي الطويلة أن الأشياء التي تأتي في المرتبة الأخيرة دائما يكون بها متسع للجلوس والتأمل والصمت، والتذكر، فما أن أرحت جسدي على المقعد المتسخ، وتأكدت أن من يشاركونني عربة المترو، والمقاعد المتسخة، وما تبقى من توسلات المتسولين، لديهم ما يشغلهم عني، بحثت في ذاكرة هاتفي عن الأغنية المفضلة لي، وما هي إلا ثوانٍ، وكان «عبد الوهاب»، يغني: «قالوا لي هان الود عليه».

أخرجت بطاقتي الشخصية، وجدتني فيها كغالبية المصريين، لست أنا من في الصورة، تذكرت الموظفة التي

طالبتني أن أخلع نظارتي لتتمكن من التقاط صورة البطاقة، أخبرتها أن عينيّ لن تظهرا لو استمعت لنصيحتها وخلعت النظارة، شرحت لها الأمر باستفاضة، أخبرتها أن سنوات كثيرة مرت لم أخلع فيها نظارتي إلا في اللحظات تلك التي أكون فيها وحيدًا، أشعر أن روحي، حياتي كلها، يجب أن تظل مختبئة خلف تلك العدسات الثقيلة، حتى لا يلمح أحدٌ العجزَ الذي أعانيه، لكنها رفضت، أكدت أن التعليمات التي وضعتها مصلحة الأحوال المدنية تشدد على أن المواطن يجب ألا يكون مرتديًا نظارة أو أي شيء آخر، حاولت تلطيف الأجواء، البحث عن طيف ابتسامة ترتسم على وجهها، فأخبرتها أن حكومتنا الرشيدة تريدنا كما ولدتنا أمهاتنا، لكن الملعونة لم تتجاوب مع مزحتي، أعادت على مسامعي بصوت لا يطيق معي صبرًا: «اخلع النضارة يا أستاذ.. عشان نخلص في يومنا ده».

أعدت بطاقتي لمكانها، ارتكنت بمرفقي على شباك المترو، وفي الخلفية صوت «عبد الوهاب»:

خلوني أحبه على هواي وأشوف في حبه سعدي وشقاي
ده مهما طول شوقي إليه ومهما زاد هجره وبكاني.

علاقتي بالنظارة بدأت منذ كنت في العاشرة من عمري، لم أكن الولد المفضل لأبي، لكنه -للغرابة- كان الأب المفضل لي، تركت كل أمور الحياة، لم ألعب مثلما يجب أن يُفعل في العاشرة، أمي لم أكلفها عناء البحث عني في ليالي الصيف الطويلة المرهقة بين تجمعات أقراني الذين يلوذون بالشارع لقتل الوقت، والتمرد على أوامر الكبار، كانت دائما تعرف أنني هناك حيث مكان أبي، أرتدي نظارته، أجلس مكانه، مقلدًا طريقته في الجلوس، ممسكًا بكتاب كان يقرؤه منذ ساعات، أحرك شفتيّ بكلمات لم أكن أعي فحواها، لكنها كلمات مرَّت على عيون أبي، إذًا فهي ذات أهمية، كل ما كان به رائحة من أبي كان يشدني.

في الثالثة عشرة أدركت أمي أنني لا أرى جيدًا.. أدخلتني اختبارات عدة، طالبتني أن أحصي دجاجاتها التي تطلقها في «حوش» البيت، فشلت طوال مرات أربع في اختبارها الأول، لم يجد اليأس طريقه لقلب أمي، يبدو أنها لم تكن تريد الاعتراف أن وليدها يحتاج إلى ما يساعده في رؤية الأمور، لهذا وضعتني في امتحان إحصاء كم «زرزو» يقف على أسلاك الكهرباء الممتدة فوق سطوح بيتنا، وفشلت، وعندما تعثرت

قدماي في بيض إوزتها الوحيدة، فاتحت أبي في الموضوع، أخبرته أنني ولد لا يعرف أن يضع قدميه.

بمرور السنوات، أصبحت خبيرًا في أنواع النظارات، الجيد منها أدركه، والنظرة الأولى تكشف لي الرديء، صنعت لنفسي سبع نظارات، لا لشيء، إلا لاكتشافي أنني لا أمتلك من الدنيا شيئا، ولأن الامتلاك لا بد أن ترافقه خسارة، فقد عرفت أن رغبتي في أن تكون النظارة حاضرة في كل المشاهد، تواجهها رغبة الآخرين في التخلي عنها لتكتمل الصورة.

في جميع المناسبات، وجدتني في مكان خلفي، في البداية، أخبرني المصور الذي استأجرته مدرستي الثانوية لتصوير دفعة التخرج أنني يجب ألا أتصدر الصف الأول، فعدسات نظارتي تعكس أضواء «الفلاش»، اختار لي مكانًا على طرف الصف الأخير، ظهرت فيه النظارة ولم أظهر أنا جيدا، كنت مجرد بقعة ضوء لامعة في صورة تملؤها الوجوه المبتسمة، حمدت الله يومها، فـ«حب الشباب» الذي كان يحتل وجهي، علامة على بلوغي، سيظهرني شبيه بـ«المسخ»، فقلت: «بقعة ضوء أفضل من وجه مشوه».

في صور الذكريات التالية، دون ملاحظات المصور،

قررت الوقوف في طرف الصف الأخير، أي صف أخير، وطوال السنوات تلك لم أتلق أية ملاحظة على مكاني، وكأن جميع شركائي في الصورة يمتلكون الخبرة الكافية التي تتيح لهم اختيار المكان الأفضل لصاحب العدسات الثقيلة!

الصوت المسجل، يخبر ركاب القطار الأخير أنها محطة السيدة زينب، محطات أربع لا تزال متبقية، و«عبد الوهاب» أنهى أغنيته، أعدت تشغيلها، وقررت منحها جزءًا من اهتمامي، لعلها تنقذني من الذكريات تلك، لكنني فوجئت برأسي تذهب إلى أنه كان مثلي يرتدي نظارة، عدساتها ثقيلة كعدسات نظارتي، لكنني أحب صوته ولا أريد أن أكون شبيهًا به، طردت الفكرة سريعًا، وأعدت الكرة لعلني أتمكن من التركيز في كلمات الأغنية فيغيب وجه صاحبها عني.

أنا بحبه وأراعي ودُه إن كان في قربه ولا في بُعده
وأفضل أمنِّي الروح برضاه ألقاه جفاني وزاد حرماني
هو اللي حالي كده وياه كان افتكرني عشان ينساني

زوجتي الأولى لم تكن من ذوي الأملاك مثلي، لا أدري ما الذي جذبها ناحيتي، لكنني سرعان ما وجدتني أقف في ستوديو التصوير، ويطالبني المصور بخلع نظارتي، لم أكن

في مزاج يسمح لي بالدخول في مناقشات، خلعت النظارة، وسألته: «عيون العروسة ظاهرة؟»، أكد لي أنها عشرة على عشرة، فقلت له «توكل على الله»، ولم أظهر كبقعة ضوء في الصورة...!

في زواجي الثاني، لم أعط للأمر أهمية، فزوجتي كانت مثلي، لكنها سرعان ما فاجأتني بقرار «الليزك»، لا أعرف حتى الآن لماذا اتهمتها بالخيانة، الأحوال بيننا تدهورت، أصبحت لا أراها جيدا، فمنذ قررت إجراء العملية اللعينة تلك، قررتُ ألا أرتدي نظارتي في وجودها، فكان الطلاق.

محطتي التالية، الصوت المعدني أعادني من هناك، انتبهت للأمر وكان «عبد الوهاب» ينهي أغنيته:

«بكرة يعز الود عليه ويفتكرني عشان ينساني».

موعد مناسب لزيارات الخونة

كان سخيفًا.. بل أشد سخفًا من المرات السابقة، ضربني من الخلف، غضبي يتجاوز معدلاته الطبيعية عندما تأتي الضربة من ورائي.. خائنًا كان هذه المرة.. اعتدته يأتي من الأمام، يواجهني، وأكون دائما أنا الرابح.. لكنه هذه المرة أتقن فنون الحرب.. وجاء من ورائي مصطحبًا مع الحُمى.

قائمة الخونة قاربت على الامتلاء. أمي ذهبت للقاء ربها، فامتد بهما اللقاء ولم تأت حتى الآن، أبي تركني لجدتي -أم أمي- تتولى تربيتي وتهذيبي وتعويضي غياب المرأة التي ذهبت إلى هناك، أشقائي.. إخوة يوسف الذين اتفقوا مع أبي بأنني لا أصلح إلا للبقاء في حِجر الجدة.. الجدة هي الأخرى كانت خائنة، قبلت مهمة تربية الولد اليتيم لأنها ترى في عينيه العسليتين الناعستين انعكاس صورة ابنتها الراحلة.. هكذا

أنا موعود بالأحبة الخونة.

الصداع.. كان أقوى هذه المرة، ضرب الرأس من الخلف.. في أيامنا الأولى سويًا كنت أكتفي بتمرير يدي على مكان الألم، أتجاهله دقائق عدة، فيجمع أشياءه ويرحل مخلفًا وراءه خسائر لا تستحق أن توضع في خانة «فادحة»، تزايدت دقائق وجوده في الأيام الأخيرة، يبدو أن تمريرة اليد المعروقة لم تعد كافية، بدأت أشق طريقي لـ«مسكنات الألم» التي أكرهها، لكن ضرباته الرتيبة الموجعة، جعلتني أتقبلها، ما هي إلا أسابيع عدة، وأصبحت لا أطيق الوجع، الضربات تزايدت حدتها، المسكنات تراجعت خطوات عدة إلى الخلف.. ورفعت راية الاستسلام.. فهزمني الصداع.

زارتني أمي أخيرًا.. أخبرتها بالألم المستمر، حدثتها عن ساعات الليل المتأخرة التي أحصي دقائقها واحدة تلو الأخرى، بعدما أفشل في إغماض عينيّ، حدثتها عن الكوابيس المستمرة التي تلازمني، عن الأخطبوط الذي يجذبني إليه، أخبرتها أنه يحبني، أذرعه الثماني تحتضنني ولا توجعني، عن السمكة الذهبية التي ترقد فوق رأسه ساكنة بلا حراك.. عن كل أنواع الأسماك التي تطاردني أنا وأخطبوطي

الحنون، وسمكتي الصامتة.

كساحرة القصص الخيالية.. كانت أمي جالسة جواري، بلا عصا سحرية، أو نجوم تسقط من حولها، بلا هالة نور تحيط بها، لكنها أمي، فلا حاجة لنجوم تلمع، أو أنوار تتلألأ، يكفي أنها هنا، حدثتني عن أيامها الأخيرة، عن «وجع الرأس»، الذي انفرد بها طوال الأسابيع الماضية، عن كل الكوابيس التي تلاحقها.. رأيتها تبكي من الوجع.. انتحبت كثيرا، تهت في دموع أمي، أمسكت مؤخرة رأسي.. لكنني لم أبك.

التقطت أمي أنفاسها.. وبلا مقدمات تُذكر، وضعت كلتا يديها على رأسي، لم تمس أصابع أمي منطقة الوجع، لم تنظر في عيني، لكنها قالت: وجعك يوجعني.. تخلص من الألم يا بُني.. وجعك يوجعني.. وجعك يوجعنـــ... وجعك يوجعـ.. وجعك يوجـ.. وجعك.. يو.. وجعك.

وجعك.. الكلمة الأخيرة التي أنهت بها أمي مقابلتنا الأخيرة، وذهبت.. العرق الغزير الذي ينزل من كل مسام جسدي، أكد لي أنها الحمى، تحاملت على نفسي، استندت على كل ما يمكن الاستناد عليه، لعلي أتمكن من الوقوف،

لكننى فشلت، فعدت للغرق في بحر الحمى الذي ألقاني فيه «صداعي المزمن» لعل أمي تراجع نفسها، ويسمح ربها بموعد ثان يجمعنا.. سأحدثها عن أبي.. إخوتي.. جدتي.. سأحدثها عن كل الأمور التي ستسعدها، لكنني لن أجعلها تنظر في عيني، حتى لا تعاودها أوجاع الصداع الخائن.

ربها.. لم يكن كريمًا معي، لم يتركها تأتي، ومن الممكن أنها هي التي لم تطلب أن تعود.. لا يهم، فأبي لا يزال يقف في الزاوية هناك، لمحته من قبل، لكن أمي كانت سيدة المشهد حينها، فتركته يكمل سيجارته الثالثة، يرسم بخيوط الدخان التي يطلقها من فمه طائرات ورقية، صور أشقائي.. لمحته يخط بدخانه صورة أمي، وأخيرًا.. عندما بدأت ملامحي تتشكل في زفرة دخان أخيرة، نفضها بيديه، وركز نظرته على مكان ما اختاره ألقى فيه سيجارته المحترقة.. وضغط عليها بحذائه.

انسحاب أمي هذه المرة، منحه فرصة لأداء دور البطولة.. دنا مني قليلا.. توقف، صرخت فيه بعدما بدأت ملامحه تتضح لعيني المتعبة، طالبته ألا يتقدم خطوة تجاهي، بعدما رأيت جسده يسقط جزءًا تلو الآخر.. في خطوته الأولى..

أصابع يده اليمنى سقطت، الخطوة الثانية كانت ذراعه على وشك السقوط.. وسرعان ما ارتطمت بقوة وتدحرجت على الأرض بعيدًا عن الأصابع التي سبقتها في التحرر من جسده.. يتقدم أبي خطوة.. فتتوالى أجزاء جسده في السقوط، عين أبي كادت أن تسقط.. سيصبح أبي أعمى لو سقط.. أفقت من غيبوبتي.. بل أجبرت روحي على النهوض.. حتى لا أكون ولدًا سيئًا ترك أباه يتخبط في ظلمات العمى.

في لحظات الإفاقة تلك، أدركت أنها الثالثة صباحا.. تذكرتك.. وضعتِ يدك على فمي، عندما حاولتِ بدء حديث بيننا، هكذا أنتِ دائما، لا تقتنعين أن مرور صوتك يكفي لأن ترحل كل الأمور السيئة.. لكنني أزحت يدك بغضب، تحدثت إليكِ.. كلماتي خرجت بلا صوت.. ميتة كانت أحرفي.. يبدو وكأنها تسقط في بئر يوسف.. لكن لا مارة يعبرون بجواري ليدلوا بدلوهم، فيصعد صوتى إليك، بعد أن يشتروه بثمن بخس.. استعنت على كلماتي المختنقة تلك بالإشارة، حركت ذراعي اليمنى.. لم تفهمي.. بقيتِ على صورتك الأولى.. ترفعين يدك تحاولين إسكاتي.. أزحت يدك مرة ثانية، يدي اليسرى دخلت أرض معركة

«الكلام الميت»، لكنني لم أحرز أي نصر مبين، لا تزالين تحاولين إسكاتي، ولا أزال أصارع صمتي.. أخبرتك أنني استوحشك كثيرا.. كشفت لك رأسي.. تساقط خصلات شعري.. لم أشعر بأي ألم، بهدوء لا يتطلبه الموقف أزلتُ طبقة الجلد التي تغطي جمجمتي.. أشرت لك على موضع ألمي.. لم تأخذك المفاجأة، بقيتِ صامتة.. كلما هممت أمسك أصابعك، تتلاشى، كررت محاولات التمسك بك، مرة تلو الأخرى.. لكنك كنت إحدى صور أبى التي رسمها بدخان سيجارته الأخيرة.. وأنا بغبائي ولهفتي جعلتك تتلاشين، لأعود غريقا في بحر «الحمى».

كُومبارس صامت كان يصلُح لأدوار البطولة

«يا ريتني ما وافقت ع الدور».. اعتاد رؤيتي في البار على مدار شهر كامل، مع الأيام اعتياده وصل إلى الإنصات للعبارة التي أصرخ بها بعدما أدخل بأقدامي «دُنيا الكحول».. الأنواع الشعبية التي أطلبها كل ليلة، لاحظت أنها منحته مساحة ليراقبني باهتمام.. أطلب زجاجة «ستلا» في البداية، وبعد 15 دقيقة، أسأل بصوت هادئ عن «الكونياك».. 45 دقيقة، تكون كافية لي لكي أقضي على الزجاجة مجهولة المصدر، 60 دقيقة مرت.. إذن بعد 10 دقائق أخرى، سأصرخ بعبارتي تلك التي اعتادها.

لاحظت أنه ترك مساحة كافية لي لأتحرك وأملأ فراغات «البار» بجملتي وصوتي الجهوري. في بداية الشهر الثاني، وقع في فخ الفضول، أدخلني دائرة من يراقبهم كل ليلة، نظراته

تلك كشفت أنه قرر منحي لقب «رجل مهزوم».. هيئتي الخارجية، من الممكن لعبت دورًا فى منحي اللقب هذا، ومن الجائز أن يكون «الكونياك الشعبي» لعب هو الآخر دورا في جعلي الأجدر باللقب، فأصابعي العشرة أفقد عليها السيطرة بعد دقائق معدودة، فجأة تفلت من مداري، تسرح بعيدًا حُرة فى ملكوتها، فى بعض الأوقات أتابعها تتراقص على «مزيكا» تأتي من السماعات الخربة التي أضافتها إدارة البار قبل أيام من العام الجديد.. أقدامي هى الأخرى تبدأ في الدوران، تلتصق في لحظة فاصلة، بالعجوز التي تجلس جواري في بعض الأوقات، وتلتف إحداها على قدم نديمتي، وكفى.

أوقفني فى الأسبوع الثاني من الشهر الثاني، بعدما لاحظ أنني جئت وحيدا، سدد نظراته لأصابعي ليتأكد أنها لا تزال تحت السيطرة، أقدامي هى الأخرى كانت صامتة مطيعة، فالليلة لم تبدأ بعد، رفع لي كأس «بيرة» فبادلته التحية، وأشعلت سيجارتي، ومنحته نظرة، أدرت رأسي بعدها، موليا وجهي للمساحة المظلمة الممتدة.

رفيقتي لم تأت.. فرصته متاحة، متابعتي له كشفت أنه لا يحب «الكونياك»، لكن فضوله جعله يحمل إحداها ويفرض

نفسه على «ترابيزتي».. تقبلت الزجاجة دون أن أنطق بكلمة شكر.. وأشرت بأصابع مهزومة ليجلس.. فجلس.

«أنا يا سيدي كومبارس.. أو تقدر تقول كنت مشروع كومبارس».

لم يسألني، لكنني عرفت، سر هديته الشعبية، فصببت لنفسي كأسًا، وعندما سدد نظراته إلي، متسائلا، لماذا ترك كأسه فارغة.. قلت:

«أنت بتشرب 3 ستلا.. والكونياك مش مزاجك.. أنت عاوز تسمع.. بتحب تسمع.. عاوز تهرب منك فيا.. اسمع بقى.. أنا من 20 سنة كان عندي وقتها 30 سنة، وكنت غاوي فن.. كل يوم أقف قدام المراية وهاتك على عمر الشريف، فريد شوقي، محمود المليجي، زكي رستم.. كنت بأعمل كل حاجة، وفي يوم كنت في أوردر تصوير في ستوديو مصر، أنا كنت شغال كومبارس وقتها، وفجأة لقيت المخرج بيصرخ «كت.. كت».. ونادى المساعد بتاعه وقال له كلمتين فى ودنه، وعينيه كانت عليا، وبعدها بشوية، أخدنا بريك، ولقيت المساعد بيقول لي كلم الأستاذ، ولما دخلت للمخرج قال لي أنا عاوزك تقف قدام في الطابور، بلاش مكانك اللي

ورا، وعاوزك تفتكر أكتر حاجة ضايقتك في حياتك.. أول ما أقول أكشن مش عاوز دماغك دي تفكر غير في اللي نكد عليك عيشتك».

توقفت قليلاً، ملأت كأسي الفارغة، ودون أن ألتفت ناحيته أكملت: إحنا اتعودنا ما نسألش.. هزيت دماغي، ومشيت، وأول ما قال «أكشن» افتكرتها.. عارف يا أستاذ أنا لو عشت 100 سنة فوق عمري، هافضل أفتكرها، الأول كنت بأحب أفتكرها، بأحب اليوم اللي شفتها فيه، أول نظرة منها، يوم ما قالت لي أنا معاك.. بأحب كل لحظة كان صوتها بيعدي على روحي يصحيها.. كل لمسة خلتني أحس إني بني آدم.. بس يوم المشهد ده.. كل حاجة راحت، وافتكرت يوم ما ماتت.. خانتني لما مشيت كده.. يومها معرفتش أعمل حاجة، كان أول مرة أتأكد إني منفعش أكون غير «صامت».. كومبارس صامت.. وبقيت فعلا كومبارس.. تالت يوم بعد موتها.. كسرت المراية اللي كانت بتقولي أنت نجم تنفع فى دور بطولة، وقررت أكون في آخر المشهد.. كل المشاهد قررت أكون فى آخرها..وكُنت».

عدت لصمتي لثوان عدة، بدأت أصابع تعلن عن تحررها

من سيطرة جسدي، تحركت فى الهواء، على وقع موسيقى «آه لو لعبت يا زهر».. انتهز لحظات اندماجي، وسألني:

«طيب إيه الدور اللي وافقت عليه وكل يوم تقول يا ريتني ما وافقت؟!»

ضحكت.. بكيت.. انتحبت، لو شئت الدقة، تراجع سنتيمترات عدة، حتى لا تكون ساقه ضحية لأقدامي التي عندما أفقد السيطرة عليها تلتف حول أقرب جسد، يبدو أنه لا يحب أن يكون قريبا فى اللحظات تلك، فهمت تحركه التكتيكي هذا، فأكملت، بعدما ضبطت مقعدي، وابتعدت بدوري سنتيمترات أخرى:

«لما أفيش الفيلم نزل، اكتشفت إني المخرج والمنتج والأبطال اتفقوا إني نظرة عيني في المشهد إياه هي اللي هاتكون صورة الأفيش.. وبس، كتبوا الأسماء تحت عيني، الأبطال، المخرج، المنتج، الكاتب، والموزع الموسيقي.. أنت عارف طبعا الكومبارس ماهوش مكان ع الأفيش.. الفيلم نجح، والناس كتبت عن رؤية المخرج العبقرية، والسيناريو الرائع، وتصميم الأفيش المذهل، ونظرة العين العبقرية، واللقطة الحلوة، وبس..».

«ومن يومها.. وعيني ماوقفتش قدام كاميرا.. كل مخرج يعرف إني موجود فى كاست الكومبارس يقول وهنعمل إيه بيه.. ما عينه خلاص.. دي الحاجة الحلوة اللي كان ممكن أستفيد بيها، لحد لما مخرج قرر يستفاد من باقي الجثة، قرر إني أكون أول كومبارس بيواجه الكاميرا بقفاه، وبس بقيت بأخد نص الأجر، عشان نظرة عيني وحزني والخيانة.. يبقى حقي أقول ياريتني ما وافقت ع الدور ولا إيه».

في الأيام الأخيرة لي داخل البار، بدأت ألاحظ أن هناك عيونا تتلص علي، تتابع خطواتي مذ أخطو إلى المكان، ولا تتركني هنا أتحدث مع أصدقائي.. شقيقتي أقعدتها أوجاع الروماتيزم في المنزل، فلم تعد قدمي تلتف على ساقها اليمنى، الرجل الذى اعتاد الجلوس معي، والاستماع لحكايتي هو الآخر لم يظهر في الأفق، بدأ العاملون في المكان يخترعون الحجج للمرور بجوار طاولتي.. بدأت الهمسات تعلو من الطاولات المجاورة.. تعالت الأصـوات.. أذني السليمة التقطت إحداها «كل يوم ع الحال ده.. يفضل يحكي ويتكلم عن الدور اللي دمر حياته.. ويكلم شخص تاني.. وكل يوم يفضل يدور على واحدة بيقول عنها أخته.. بس عمره فى يوم

ما حد عرف له أخت ولا صاحب.. واضح أنه خلااص.. عقله في الإنعاش».

عميان هم.. كيف يتحدثون عن غيابك، وأنت هنا بجواري؟.. «قوم يا أستاذ والنبي قول لهم كفاية شُرب عليهم النهارده.. قوم.. ما تقوم ولا أنت خلاص عندك روماتيزم؟!

فى الممر الجانبي، كان مدير البار يقف متوترًا، ألقى بعبارته الأخيرة للجرسون، ورحل عائدًا لطاولته:

«حاول تمشيه دلوقتي.. أنا مش ناقص خمورجي ومجنون كمان.. لا يا عم بناقص الكام جنيه اللي بيدفعهم.. الناس ابتدت تتضايق من صوته العالي والعفاريت اللي بيكلمها».

لم أشعر بشيء.. أصبحت خفيفًا جدًا، بعدما أخبرني الجرسون، أنني يجب أن أرحل.. طلبت دقائق عدة لأتمكن من استعادة اتزاني... وجدت صديقي الذي يمنحني يوميًّا زجاجة الكونياك ليستمع إلى حكاياتي هناك.. شقيقتي تتأبط ذراعه وتنادي باسمي. .. أنظر إلى الناحية الأخرى، أرى المخرج يزعق بأعلى صوت .. ثري.. تو.... جسدي خفيف جدا.. صديقي تلاشى وأنا أمد يدي إليه.. شقيقتي اختفت فجأة.. آلام الروماتيزم الملعونة يبدو أنها عاودتها

من جديد.. الأصوات تتداخل فى رأسي.. اقف يا مجنون.. استنى.. هاتموّت نفسك.. الآن أنا أسقط من فوق البناية.. لا أنا أطير.. جسدي يسقط.. روحي تطير، وعيني تتابع حركة شهاب لامع يخترق ظلمة سماء يناير.. أنا أموت إذن..

.. واااااااااااااااان «أكشن».

سيارة عجوز تُوزع «الياسمين» على الملائكة

يومها.. اكتشفت أن ابنتي ذات السنوات الست تمتلك نفس حاستي تجاه البشر، هزّتْ يدي بعنف يناسب سنوات عمرها، أشارت بيدها الأخرى ناحية سيارة سوداء متهالكة، اقتربت من الباب الأمامي وتوقفت.

رحلتنا الصباحية إلى مدرسة ابنتي متعبة بعض الشيء، نحاول كسر حدتها بالحديث الجاد أحيانًا، بالقبلات الهوائية، والأحضان الدافئة، أو «توضيب مقلب» جديد يكون كافيًا لأن تخرج من زوجتي ضحكة عالية بعض الشيء تفقدها -لثوانٍ- بعضًا من وقارها المتزن.

في العام الدراسي الأول لها، كانت الأمور تسير وفق ما أرى، نلحق بـ«مترو مزدحم»، أحملها فوق كتفي، أترك شنطتها لجاري في المقعد، أمنحها قبلة على استحياء، أودعها بهدوء أمام باب

فصلها الدراسي، وأحصي الساعات المتبقية حتى ميعاد الخروج، لتبدأ رحلة العودة الصامتة، فهي تفضل استعادة ساعات نومها المهدورة بـ«فعل مواعيد المدرسة»، وأنا أمارس دور المانيكان الصامت، أتركها تلعب مع الملائكة وأتابع حجم انتفاخ جفونها والهالات السوداء التي بدأت تظهر تحت عينيها.

في إحدى الزيارات المتكررة لطبيبها، أخبرني أنها تعاني من نقص بعض العناصر، أوصى بـ«عسل أسود»، ووجبة إفطار جيدة، والتأكد من حصولها على أكثر من 9 ساعات نوم متواصلة، تعليمات نفذتها حرفيًا، إلا الأخيرة، لم أسمح لها بالساعات المتواصلة من الغياب، أوقظها خلالها أكثر من مرة، أهمس لها في أذنها بأنني أحبُّها، فترد على اعترافي هذا بصوت طفولي ناعس «وأنا كمان».. وتعود لملائكتها الذين يلهون معها في حديقة الرب.

لم أتوقف عن تناول العسل الأسود معها يومًا.. لم تكن تحبه -فأنا لم أكن أحبه- لكن الغريب أن الهالات السوداء لا تزال واضحة لـ«عين أمها»، ونضارة طبيبها، في حين انشغلت أنا بمتابعة عملية وضعها لـ«زبدة الكاكاو الحمراء» كل صباح باحتراف.. كنت أتدخل في البداية بمنديل ورقي لتهذيب اللون

الذي تمرد عن مساره، وتحديدًا في شفتها العليا، ومع الأيام أتقنت هي وضع «زبدة الكاكاو»، واكتفيت من جانبي بـ«منديل قديم» أحتفظ به في محفظتي عليه آثار أحمر شفاه امرأتي المفضلة.

مذهلة ابنتي في تفاصيلها.. جرجرتني إلى العربة المتهالكة تلك، لأطالع وجه رجل عجوز، في السبعين من عمره، فتح لها الباب المجاور له، ومنحها ابتسامة رائقة.. وتركني معلقا بـعبارة «اتفضل يا ابني».

عود «ريحان» استقر بين يديها بعدما نجح العجوز في المحاولة الثالثة من تشغيل موتور سيارته العجوز.. منحها تحية الصباح بطريقته، ورمى بـ«خيط الحكاية» بين يدي، قال:

«إحنا فى شهر اتناشر ولسه الشتاء مجاش».

أحب الشتاء كثيرًا، لكن محبتي تلك، تتوقف عند شاشة التلفزيون، عندما أتابع ندف الثلج تتساقط على رأس «أنجلينا جولي»، ممثلتي المفضلة، وأقدامها تزداد روعة في «البوت الأسود»، وفخذاها يتذمران من البنطلون الضيق.. أكره الشتاء في بلادي، فلا توجد ندف ثلج، ولا أشغل بالي بمتابعة ألوان «البوت»، ولا أعطي لأمر البنطلونات -أيًّا كانت الألوان- أي اهتمام، فابنتي تراقب كل نظراتي..!

«عارف يا أستاذ».. قالها وصمت ثواني لمتابعة الأرقام الخضراء التي تعلو شاشة إشارة المرور: «زمان كنا بنلبس بلوفر كات من نص تسعة، والشتاء كان ذمته مظبوطة، كانت المطرة مش بتبطل .. دي خير .. اوعى تكون زي الناس اللي بتقول دي شر».

ألقيت عينيّ خارج حاجز السيارة، بعدما دفعت بأنفي -قدر المستطاع- خارجها، فرائحة السولار المسيطرة على الموقف تصيبني بصداع مزعج.. اصطدمت عيوني بنيل «كوبري الجلاء»، تساءلت ابنتي: «ليه شكل المياه بُني».. قبل أن أُلحق ابنتي بالمدرسة الحكومية تلك، كانت تتحدث الإنجليزية أفضل، كانت تقول «براون»، لكن عامًا واحدًا فقط في مدارس بلدي أعادها لـ«البُني».. ابتلعت خيبتي في صمت، وحكيت لها عن «مياه السيول»، والأزمة التي حدثت هناك في مناطق قريبة من بلدنا في الصعيد، ولم أنتبه إلى العجوز وحديثه، إلا عندما زغدني برفق في جانبي وقال: «جيرانا التلاتة ضحكوا عليا أنا والمدام.. كنا فاكرينهم جايين يشكرونا.. بس بهدلونا بالأدب».

بيد مرتعشة التقط صفحة قديمة من صحيفة أقدم، قدمها لي، وقال: «ده اللي حصل».. صورته كانت هنا أجمل، الألوان

لم تظهر سنوات عمره على حقيقتها، يجلس على طرف «فوتيه»، وبجواره تجلس امرأة يبدو أنها تصغره فى السن بسنوات عشر .. تضبط حجابها، المصور التقط لها الصورة على هذا الوضع، ركزت في ملامح المرأة كثيرًا.. مريحة جدًا كانت نظرةُ عينيها.. يدها ثابتة في الصورة، تمنيت لحظتها أن أمتلك المقدرة على تثبيت كل الأيدي المرتعشة بـ«تكة زرار الكاميرا».. لا يهم سأمتلك يومًا كاميرا، وأمنح الجميع صورة بالألوان، جميلة.. ثابتة.. ومبهجة أيضًا.

عيناي قفزتا فوق السطور، اكتشفت أن زوجته وجدت نصف مليون جنيه في كيس أسود أثناء رحلة تسوقها الصباحية، لم تشأ أن تخبره حتى لا يترك دوره في السيارات المنتظرة أمام محطة مترو الأوبرا، فهاتفت ابنها، وأخبرته بالحكاية على مهل.. الابن الأكبر كان كأبيه، أخبرها أن تبقى حيث هي.. خلال ساعة كانت تتأبط ذراعه أمام بوابة قسم شرطة العجوزة، وقتها.. اكتشفا أن الشنطة البلاستيكية بها هاتف بجوار الفلوس، رنة رتيبة أوقفتهما.. جاءهما صوت متهدج من الجانب الآخر، دون أية مقدمات، قدم الشكر لمجرد أنهما ضغطا على زر استقبال المكالمة، وأكمل حديثه دون انتظار رد «والله الفلوس دي بتاعت

شغل.. وأنا مستعد أديكم النسبة اللي تطلبوها بالقانون».

«إحنا فى قسم العجوزة.. تعال استلم فلوسك هناك».. جملة واحدة قالها الابن، وأغلق الهاتف، دقائق عشر مرت، ودخل القسم رجل خمسيني، عرف المرأة وابنها من أول وهلة، قدم لهما الشكر، منحته الكيس الأسود والتليفون ذا الرنة الرتيبة، ورفضت أن تأخذ منه شيئًا.. تخلى الرجل عن وقاره.. انحنى نصف انحناءة منح يدها المهتزة قبلة طويلة.. ورحل.

أسبوع كامل مر، لم تسحبني ابنتي إلى السيارة العجوز تلك، كانت دائمًا منشغلة بمراجعة الأحرف الجديدة التي أضافتها لها مدرسة العربي، تكرر بنعومة لا تتناسب مع الألمانية معنى كلمة «أتوبيس»، في البداية كنت أمنحها قبلة عندما تقول «Bus بوس».. وعندما اكتشفت الملعونة أنني أطالبها بمعرفة معنى أتوبيس بالألمانية لألمس خدها المتورد، اكتفت بأن تتلو على مسامعي ماذا يعني قرد (Affe) وكتاب (Buch) وشجرة (Baum) وتفاحة (Apfel) بالألمانية، وعندما يأتي ذكر الـ «Bus بوس»، تقولها وتنفلت مسرعة من بين يدي قبل أن أصيبها بقبلاتي الطفولية وتدغدها شعيرات ذقني المزعجة.

صباح الثلاثاء.. لمحته أنا هناك.. توقفت عند الدرجة الأخيرة

من سلم المترو، ألقيت نظرة مسرعة ناحية ابنتي، لم تلمح طيف السيارة حتى الآن، مشغولة كانت بالاطمئنان على بقاء «اللون الأحمر» فوق شفتيها، والتأكد من نظافة «الباليرينة» التي تولت عملية تنظيفها هي، سحبتها برقة إلى السيارة، تخطيت الرجل العجوز، لم يلمحني ولم يحرر يديه من عجلة القيادة، التزم بنظرته المنضبطة للأمام، من الوهلة الأولى لمطالعة النظرة تلك من الممكن أن تفكر أنها دقائقه الأخيرة في العالم، تجاوزت مقدمة السيارة.. ابنتي تضبط وشاحها الوردي، تركت الباب الأمامي خلفي، ابنتي لا تزال خارج إطار الصورة، وعندما ارتكنت بيدي على «شنطة العربية»، عُدت.. فتحت الباب الخلفي، ألقيت بالشنطة المدرسية في هدوء.. ألقيت السلام، وتركت مسؤولية فتح الباب الأمامي لابنتي بعدما لمحت «أعواد الياسمين» تتراقص «فوق التابلوه».

مُسدس لِعبة وثماني رصاصات حية

في البدء، كان الأمر غريبًا بعض الشيء، طريقته في ارتداء ملابسه، البدلة الكاملة، التي تكشف أن صاحبها ذو شأن كبير، مشيته الهادئة المتزنة، تشير إلى أنه لا يجب أن يكون في المكان من الأساس، وجوده بشكل عام شاذ، الخطوة الأولى كانت كفيلة بجذب لفت انتباه باعة السوق، بحكم السنوات الطويلة التي قضوها هنا في سوق الجمعة أصبحوا يمتلكون خبرة في نوعية الزبائن، يعرفون ما الذي يريده الزبون من نظرته إلى بضاعتهم، يدركون أن السيدة العجوز تلك، تبحث بينهم عن شاب يذكرها بـ«الذي مضى»، وأن الفتاة صاحبة النظرات المتوترة هناك، لم تجد بدًا من اللجوء لبضاعتهم لتكمل «جهازها»، لكنه ظل رقمًا صعبًا في معادلة السوق، لم يمنح أحدًا منهم ثغرة يمر منها ليكشف سر مروره على المكان، هو فقط كان يعلم عمّا

يبحث، وزياراته المتكررة تؤكد أنه لم يحصل عليه..!

الرصاصة الأولى سأتركها تخرج مندفعة غاضبة من الفوهة لتستقر بين عيني زوج أمي، الغريب الذي أزاح صورة أبي بعدما ارتضته زوجًا لها، أقدامه لم تطأ شقتنا سوى مرتين.. الأولى لتقديم واجب العزاء بعد رحيل أبي.. مات أبي كما يموت الناس، في السابعة لم أكن أدري ما الموت، اعتدت غيابه بمرور الأيام، أمي كانت واضحة من البداية، لم تخبرني أنه صعد إلى السماء، ولم تكن رومانسية لتحاول إقناع وليدها الصغير أن أباه ذهب لشراء أشياء تفرحه وسيأتي قريبًا.. قالت: «مات.. وستكبر يوما وتعرف ما الموت».

يوم العزاء.. أتذكره جيدًا، كان في مقدمة الذين اقتحموا شقتنا، انتظر طويلًا، كل حركاته كانت تشير إلى أنه صاحب البيت، يرفع المقعد هذا، يتقبل التعازي من البواب وجيراننا في الشقة المقابلة، وعندما وصل عمي أخيرًا، انتحى به جانبًا، بتطفل الصغار تابعتهما، لم ألحظ إلا انفراجة على وجه شقيق أبي، وارتعاشات ثابتة على شفتيه.

جارنا في الشقة العلوية مر ثانية على شقتنا بعد مرور أربعين يومًا على غياب أبي.. كان منتشيا بعض الشيء، قدم لأمي باقة

ورد، أبي لم يصطحب معه يومًا باقة ورد، تقبلتها الوالدة في هدوء.. وبعد أربعة أشهر وعشرة أيام بالضبط اصطحبنا سويًا في نزهة، مررنا في منتصفها على مكتب مأذون، وأصبح زوج أمي.

الرصاصة الثانية ستكون صامتة هادئة سأمنحها لأمي، لأريحها من عذاب السنوات الطويلة التي قضتها تحت رحمة زوجها اللص.. سرق عمرها قبل أن يسطو على أموالها.

...

منذ خروجه على المعاش، تطارده الذكريات تلك، يشعر في بعض الأوقات، تحديدًا التي يجف فيها حلقه، أن الدماء الدافئة يمكن أن ترويه، لا يعرف تحديدا متى بدأ الأمر، لم يكلف نفسه عناء الحديث مع صديق، من الأساس لا يمتلك هو أصدقاء، فكر مرات قليلة المرور على عيادة طبيب نفسي اكتشف «روشتاته» عندما كان يعبث في أوراق أمه الراحلة، علم أنها كانت تتردد عليه في سنواتها الأخيرة، لم تخبره بالأمر، مذ أخبرته أن أباه رحل، لم تجمعها الأيام على مائدة الحقيقة، كانت له أمًا، وكان لها ابنًا، وكفى..!

هل الصورة التي عثر عليها وسط محتويات والدته هي السبب

فى سيناريوهات «الرصاصات الثماني»؟.. يرى نفسه فيها يقف مبتسمًا، بين أبيه الذي انفرجت من شفتيه ابتسامة، في حين حافظت الأم على رزانتها ولم تمنح المصور العجوز فرصة رؤية ابتسامتها، يمسك بين يديه «مسدس لعبة»، تذكر أنه وجده فوق مخدته صباح أحد الأعياد، لم يطلبه من أبيه، لكنه قرر منحه إياه، صوت الطلقات، لا يزال يدوي فى أذنيه، تحذيرات أمه من توجيه فوهة المسدس ناحية وجوه الآخرين لا تزال حاضرة في المشهد.

ثماني طلقات بالضبط.. تذكر أن قطط البيت كانت تهرب منه عندما تلمح مسدسه الأسود يلمع بين يديه، أبوه كان دائم التشجيع له، أخبره أنه عندما يبلغ الثامنة عشرة سيمنحه مسدسه الحقيقي، لكن مات أبوه قبل أن يكبُر وذهب المسدس لعمه الذي أراد شيئًا من رائحة شقيقه الراحل..!

«الطلقة الثالثة ستكون من نصيب عمي.. متزنة وثابتة، ستكون ذكرى ثانية له من رائحة شقيقه الراحل».

جولاته في محال لعب الأطفال، لم يحصل خلالها على مسدس طفولته، اصطدم في طريقه بمسدسات المياه المبهرجة الضخمة، رشاشات غريبة اللون كبيرة الحجم، أدرك أن سنوات طويلة

مرت عليه، منذ كان يتردد على محال بيع لعب الأطفال.. عيناه توقفتا أمام «لوح تنشين»، أبوه رسم له اللوح هذا يومًا على «ورق كرتونة»، تركه يطلق رصاصاته واحدة تلو الأخرى، وعندما أخبره بنزق طفولي أن رصاصات مسدسه لا تصيب اللوح، والأمر كله صوتٌ عالٍ فقط، كان رد الأب جاهزًا، قال: «اليوم تتعلم وضع رصاصتك على الطريق الصحيح.. وغدًا تأكد أنها ستخرج وتستقر حيثما تريد».

لم يحصل على المسدس الذي يرغبه، مسدس طفولته ذي الطلقات الثماني، لكنه اشترى «لوح التنشين» ورفض أن يحمل معه الأسهم المدببة المرفقة به، ورحل عن المكان وسط تعجب البائع، يومها قرر أن يبحث عن مسدسه هناك، حيث كل شيء متاح، فاتجه لـ«سوق الجمعة».

المكان ممتلئ على آخره، البشر يتزاحمون على كل شيء ومن أجل أي شيء، وقع في فخ «نصاب السوق»، بعدما قلب أوراق الكوتشينة أمامه وسأله «السنيورة فين؟!».. وعندما اكتشف مكانها، منحه نصف جنيه، بعدما كان صوته يعلو فوق سحابة الأتربة العالقة فى سماء السوق بأن «السنيورة بـ10».

ستكون رصاصتي الرابعة من نصيبه.. قُضي أمره!

جولة حرة.. هذا ما أقنع نفسه، بعدما عاد من زيارته الأولى للسوق خاويا على عروشه إلا من «نص جنيه السنيورة»، في الأيام التالية، استعد لجولة جادة محددة هذه المرة، لم يسأل جارته التي سبق وأن كشفت له شغفها بزيارة سوق الجمعة عن مكان لعب الأطفال هناك، لم يرد أن يترك لها باب الحكايات مواربًا، منذ 20 عامًا لم يستلطفها، ولم تقدم جديدًا يدفعه لمنحها موطئ قدم في حياته.

«ما المانع أن أمنح جارتي الطلقة الخامسة».. قالها، وهز رأسه منتشيًا، وأكمل: «صراحة.. تستحقها.. لكن ليس في رأسها.. سأركز أن تكون في فمها، لسانها تحديدًا، لكن كيف سأجبرها على إخراجه والتقاط رصاصتي قبل أن تقتلني بحكاياتها القبيحة الفاضحة.. مؤكد سأجد طريقة لإنهاء الأمر.. مؤكد».

بدأ ينتظر أيام الجُمع ليشد رحال يومه إلى السوق، ضبط نفسه في إحدى المرات يشد السير وراء الأربعينية التي جذبته بنظراتها، لم يكن يومًا يتصور أنه سيلهث للحاق بذيل امرأة، الوضع كان غريبًا وممتعًا، خدر بسيط شعر به يسري في جسده بعدما لمست يده الذابلة المرتعشة المعروقة باطن كفها المنتفخ، لم يكن يدرى أنها خدعة من البداية.. النظرة مدبرة.. اللمسة مدروسة.. كان

ينتظره بلطجي بمطواة لامعة رفعها في وجهه، وسط المقابر، تركه يرحل بعدما استولى على مئتي جنيه كانت بحوزته.. بعد خطوات عدة، لاحظ اضطراب خطواته.. اكتشف أنه فعلها على نفسه، تهديدات البلطجي هدمت جدار مثانته.. فقرر أن يمنحه الرصاصة السادسة... والسابعة سأتركها ترقد في باطن كفها.. سأكتفي بترك علامة على جسدها لتتذكر خيانتها لي..!

الثامنة.. رصاصته الأغلى، ألقى نظرة على لوح «التنشين»، دقق في دوائره المتتالية، الألوان التي تتداخل، وأغمض عينيه، عرف وقتها، أن الثامنة سيتركها لقلبه، سيرفع مسدسه، يغمض عينيه، ويترك الأمر لقلبه.. الطلقات السبع كانت من نصيب من اختاره عقله.. علّه يختار ضحيته الأخيرة التي تستحق رصاصة من القلب ستسقر بالقطع في القلب.

أجنحة الفراشات

منذ عرفتها.. تأتي مصطحبة معها فراشات بيضاء.. بالفعل بيضاء، لم تأت يومًا بأخرى زاهية الألوان.. ذكرتني بأمي.. لكن أمي كانت ترافقها دجاجات.. خمس دجاجات تحديدًا، لا تتركها طوال اليوم، إحداها تمشي أمامها، وتظنها من الوهلة الأولى أنها تُمهِّد الطريق لسيدة الدار.. اثنتان تحاذيان خطوتها.. وبقية «فرقة الدجاج» مهمتها تأمين محيط الدائرة.

كانت مختلفة عن أمـي.. فراشاتها البيضاء، في لقائنا الثاني أخبرتني أنها ورثتها عن أمها الراحلة.. ارتفع حاجبي الأيمن مندهشًا.. تساءلتُ ببلاهة: وهل تمتلك أمكِ مصنعًا لـ«الفراشات البيضاء»؟.. وإن كان كيف تأمرها أن تخرج من دائرتها لتدور حولك أنتِ؟.. ضحكتْ.. أعرف أن بلاهتي يومها لا يجب أن يُقابلها سوى الضحك.. لكنّها قالتْ: اصبر..

وستعرف حكايات فراشاتي وقصة أمي.

أحببتها.. لم تكن لـ«فراشاتها البيضاء» أي دور في تمهيد طريق محبتي.. بمرور الأيام اكتشفت أن فراشاتها لا يراها غيري.. صديقنا الثالث، اكتفى بالسخرية من محبتي لها.. من فراشاتها الوهمية.. أمي الوحيدة من صدقتني.. أمرتني -وهى التي لم تأمرني قط- أن ألتصق بـ«فتاة الفراشات».. كل ليلة كانت تنهي ما وراءها.. تجلس على حافة سريري.. تتلو ما تبقَّى من «وِرد صلاتها» وهي تُريح ظهرها لتواجهني.. تبتسم -أحبُّ من تجعل أمي تبتسم- وتفرد ذراعيها.. وتدعو لي ولها ولدجاجاتها الخمس وكان للفراشات نصيبٌ من الدعاء.

أخبرتها عن أمي.. ضحكت.. تمايلتْ بفعل الضحك.. فصنعت فراشاتها حولها قلبًا.. أعادت ترتيب نفسها في ثوانٍ عدة.. تخلت عن الدائرة الاعتيادية التي تصنعها حولها.. رسمت قلبًا.. لكنها كانت عشوائية في حركتها.. لوَّحتُ لها لترى «قلب فراشاتها».. فاجأتني.. وقالت: لن أرى أية فراشات.. لكني أعرف أنها هناك!.. صف لي شكلها.

عاودتني البلاهة.. فقلت: «قلب.. مجرد قلب عشوائي مرتبك محاط بفراشات بيضاء».

أغمضت عينيها.. 19 ثانية.. أتقن حساب لحظات الغياب.. وفي الثانية العشرين.. نزلت دمعة.. اثنتان.. انتحبت في الدقيقة الثانية.. اللعنة بلاهتي رسمت حولي مكعبًا.. أكره الهندسة.. الزوايا الحادة.. المنفرجة.. أكره الرياضيات.

10 دقائق استغرقها حزنها.. ارتكنت بدوري إلى الصمت.. لم تبك أمامي يومًا.. لا أعرف ماذا أفعل؟!.. وجدتني أحدثها عن أمي.. أخبرتها أنها حلمت بها أول أول أمس.. رأتها تلبس ثوبًا أبيض.. استعاذت من اللون.. وأكملت: لم أراكَ بجوارها.. كانت ترقص مع فراشاتها.. رسمتْ الفراشات حولها قلبًا.. اهتز القلب، في المرة الأولى.. سقطت فراشة.. ارتعش القلب.. رعشة ثانية، كانت أقوى، دفعت الجانب الأيمن من قلب الفراشات للسقوط.. أصبحتْ بنصف قلب.. في الثالثة صنعتْ الفراشات المتبقية خطًّا مستقيمًا.. فدائرةً.. فمربعًا.. ثم عادت سيرتها للخط المستقيم.. ودخلت في ثقب كبير فُتح بجوار قلبها.. فابتسمتْ.

أمي لم تفسر لي الحلم.. قالت: «خليك محاوطها.. وفراشاتها هتفضل محاوطاكم».

لم أرِو لها الجملة الأخيرة.. أعرف أن النهايات لا تُسعد الأحبة.. فرواية الحلم كانت كافية لأن تتوقف عن البكاء،

ابتسمت ثانية.. لم يرتبك «قلب فراشاتها» هذه المرة.. كان ثابتًا.. واضحًا.. حادًّا على غير عادة القلوب البيضاء.

قالت: أما الفراشات البيضاء فهي أيامي السعيدة.. صارحتني أمي يومًا.. سيأتي من يرى فراشات بيضاء تدور حولك.. امنحيه قليلًا من الصبر.. كثيرًا من الحب.. امنحيه السكينة.. بمرور أيامكما ستسقط فراشاتك واحدة تلو الأخرى.. ستتغير الدائرة.. ستهتز الأضلع.. ستبكي.. نعم ستبكي الفراشات المتبقية.. سترى أمه حلمًا.. ستموتين بعد سنوات تسع من الحلم.. ستموتين.

لكن أمي قالت لي: «حاوطها والفراشات هتحاوطكم».. أخبرتها بالسر.. البلاهة عاودتني.

«أعرف أنها قالت لك هذا.. لكن اسمح لي أمك لم تذكر لك الحقيقة كلها».. عاودتها نوبة الصمت.. تمنيت ألا تبكي.. فلم تبكِ.. بيد مرتعشة فتحت حقيبتها.. أخرجت محفظتها الوردية.. قدمتْها لي.. قالتْ بصوت محايد: في الجيب الأصغر ستجد ورقة.. خُذْها.. لا تفتحها إلا بعدما تُنهي أُمُّكَ «وِردَ صلاتها».. وتستريح بجوارك على السرير.. لا تحدثني بعدها.. سنلتقي هنا.. غدًا.. لا فليكن ميعادنا بعد غد.. سأنتظرك.

أخبرتُ أمي بكل شيء.. أنهت صلاتها متعجلة.. تلت وِردها على مهل.. لمعتْ عيناها بالدموع، لم تبكِ أمي منذ مات أبي غير مرة واحدة.. يوم روتْ لي حلم الفراشات.. فتحت الورقة.. بيضاء كانت تُزين حوافها فراشات بيضاء.. وفي الوسط مدت فراشة أجنحتها.. زاهية.. ملونة.. ممتعة.. كانت مذهلة.. وقرأت:

ابنتي

اليوم تبلغين عامك العاشر.. أعرف أنني لست هنا.. وأعرف أنك لا تمسكين بالورقة الآن.. أبوك يتولى المسألة... يعرف كل الحكاية.. دعيه يقرأ.. لا تبكي.. لن تبكي.. لكن سيأتي يومٌ وتبكي.. السنوات ستمر.. ستكبرين يا حبيبتي.. وسيكبر حزنك.

ابنتي الغالية..

سيأتي من يرى فراشات بيضاء تدور حولك.. امنحيه قليلًا من الصبر.. كثيرًا من الحب.. امنحيه السكينة.. بمرور أيامكما ستسقط فراشاتك واحدة تلو الأخرى.. ستتغير الدائرة.. ستهتز الأضلع.. ستبكي.. نعم ستبكي الفراشات المتبقية.. سترى أمه حلمًا.. ستموتين بعد سنوات تسع من الحلم.. ستموتين.

لن تري فراشات.. لا تحاولي.. قبلك حاولتُ كثيرًا.. تعريتُ

أمام المرآة في بيت أبي، عندما أخبرني والدك أن فراشات بيضاء تحاوطني.. حدثني عن القلب.. عن الخط المستقيم.. عن المربع.. عن الثقب.. قال لي كل هذا.. لكني لم أرَ الفراشات إلا في عيني أبيك.

تزوجي من يرى فراشاتك.. حقيقة لن تتزوجي إلا من سيرى فراشاتك.. ستنجبين طفلة.. اكتبي لها خطابًا جديدًا.. اتركيه بين يدي أبيها.. سيقرؤه لها في عامها العاشر.. وستفهمه في عامها العشرين.. ستكبر.. ومعها حزنها يكبر.

أغلقت الورقة.. نامت أمي.. يبدو أنها لم تكمل بقية الرسالة.. حملتها إلى سريري.. وبقيت حتى صباح اليوم التالي أفكر في الفراشات البيضاء.. الفراشة المذهلة.. أبيها.. ابنتي.. وميعاد الغد.

الخامسة.. اعتادا اللقاء هنا في الخامسة.. مرت 10 دقائق.. الساعة التي تعلو مبنى جامعة الدول العربية تشير إلى الوقت.. تابعتها بملل.. الخامسة و20 دقيقة.. لم يأت.. استعانت على الانتظار بالموسيقى.. تحتفظ بأغنيات حزينة دومًا.. اليوم قررتْ التخلي عنها.. مطربه المفضل كان حاضرًا.. ضغطت برفق على «زر التشغيل».. دارت الأغنية الأولى.. وانتهت.. الثانية..

وانتهت.. الثالثة، لم تُكملها، فساعة الجامعة عقاربها تحولت لثعابين ضخمة.. ثعبان الثواني تحرك مسرعًا.. تمدد على الحائط.. وجد طريقه للنزول.. دخل في شباك تاكسي أبيض كان يمر قاطعًا طريقه إلى كوبري قصر النيل.. الثعبان التف على رقبة السائق.. توقف التاكسي.. لا.. ارتفع التاكسي فوق الرصيف.. اصطدم بقاعدة الأسد الأيمن.. لم يرتعش الأسد.. لكن التاكسي اشتعلت به النار.. وصرخات المارة لم تمتد لتنقذ السائق.. الجميع تحاشى النظر في عيني ثعبان الثواني الصغير المراوغ القاتل... الذي تدحرج وألقى بجسده من فتحة سور الكوبري.. وسمعت فحيحه الأخير قبل أن يقسمه الماء إلى نصفين.

30 ثانية استغرق الأمر.. كمن فقد كل الأحبة.. وعرف ميعاد موته.. تابعت الأمر بهـدوء.. وبعدما اطمأنت لموت السائق والثعبان.. عادت لمراقبة عقرب الدقائق.. ثعبان أكثر ضخامة.. احتل منتصف الطريق.. أغلقه أمام السيارات.. أمام المارة.. رفع رأسه.. برزت أنيابه.. أطلق فحيحًا.. أجبر الجميع على الهروب.. الصراخ.. لكنها لم تهتز.. ألقت نظرة مدققة على أنيابه.. لاحظت.. الناب الأيمن أكبر من الأيسر.. ابتسمت لدقة ملاحظتها.. حتى جاءت سيارة مسرعة.. اصطدمت بجسد

الثعبان.. قطعته.. تدحرج الذيل تقلب مرات عدة على الأرض.. أمسكه أحد المارة من الخلف.. وألقاه تحت عجلات السيارة في طريق عودتها.. زحفت الرأس.. الناب الأيسر انكسر.. تفتت.. الأيمن لا يزال واضحًا.. يهدد من يقترب.. العين اليمنى تلمع أكثر من اليسرى.. طلقة اخترقت صرخات المارة.. استقرت في الرأس.. فسقطت مُحدثة ضجةً على الأسفلت.

ثعبان الساعات.. انتصب فوق سطح المبنى.. راقب كل ما حدث.. أطلق فحيحًا.. كان صوته أعلى.. مثيرًا للاشمئزاز.. أجبر الجميع على الدخول إلى محطة المترو.. لم تبقَ إلا هي والثعبان الأخير.. تلاقت أعينهما.. الثعبان يبتسم.. خيل لها أمر الابتسامة.. فبادلته الابتسام... عينا الثعبان تركزتا عليها.. رأى قلبًا من الفراشات.. بيضاء.. دقق النظر.. اهتزت الفراشات.. تبعثرت.. زحف إلى الأمام.. تحولت قلب الفراشات إلى دائرة.. إلى مربع.. إلى خط مستقيم.. انفتح ثقب في قلبها.. دخلت منه الفرشات.. زحف الثعبان ليلحق بالفراشات.. سقط من فوق سطح المبنى.. ارتطمت رأسه بالسور الحديدي.. تدلى نصف جسده داخل المبنى.. انكسرت أنيابه.. مات قبل أن يمر من الثقب ويلحق بالفراشات البيضاء.

عن الاعتياد والحب

هو:

«وجودنا سويا لا يعني أننا نتبادل الحب.. الاعتياد هذا كل ما في الأمر.. لا تظلمي بقية كلمات اللغة.. انتظري قليلًا، ستجدين أنني أقول الحقيقة.. إنه الاعتياد.. الصباحات الطويلة التي مرت علينا.. مزاجي المتقلب.. صمتك.. لحظات تبادل التحية.. كوب الشاي نصف الساخن.. ساندوتش «مربى التين».. الألوان القاتمة التي أفضلها.. حذاؤك اللامع.. حقيبة يدك السوداء دائما.. علبة سجائري التي لا أنسى مكانها.. نظارتي التي تتولين مهمة إيجادها قبل رحيلنا المؤقت.. القبلة المعدنية التي تتبادلها شفاهنا الباردة.. رائحة برفانك العالقة في ملابسي.. تخليك عن «الروج الرديء» والتزامك بأنواع لا تترك بصمتها في المسافة

الممتدة من تحت الأذن حتى الكتف.. يدي التي أريحها على كتفك أثناء انتظارنا وصول المصعد.. نظراتنا التائهة الزائغة المنكسرة المنعكسة على وجه مرآة المصعد طوال ثواني رحلة النزول.. والسلام المؤقت الذي نلقيه على أرواحنا قبل أن نفترق».

هي:

«أحدثك أنا عن الاعتياد».. هو «صباح الخير» التي تمررها على أذني كما تمرر المفتاح الصحيح في الباب فينفتح.. الاختيار الصائب لكل الأمور المعتادة، قريب الشبه بالمنبه الذي يوقظك على ميعاد عملك.. نوع ماكينة الحلاقة التي تهذب ذقنك.. ماركة قميصك الصيفي المفضل.. نمرة حذائك الشتوي.. علامة(G) التي تضغطها بلهفة لتصل إلى الدور الأرضي، استنادك المتكرر على كتفي عندما يهتز المصعد، وأنت لا تدرك أنني اعتدت خوفك من اللحظة تلك.. الاعتياد كل الأمور التي تحدث بيننا منذ سنوات طويلة ولم أنس إحداها يومًا».

هو:

«الآن.. هل تريدين أن أحدثك عن الحب.. إنه اللحظة

التي أفقد فيها كل الأشياء، لأنظر حولي فأراك حاضرة فأبتسم.. اللحظة التي تنقلني من أقصاها لأدناها، دون أن تتحرك الأشياء المحيطة.. مقعد المترو المُعد لشخص واحد وحيد ورغم هذا يتسع لجسدينا، لكنك متمردة دائما على كل الزوايا والانحناءات ونظريات الهندسة.. اقتسام كل الأمور، قهوة المساء.. فيلم السهرة.. ذكريات الطفولة.. الجرح الغائر في منتصف الخد الأيمن.. تفاصيل خطاب الجار المراهق .. اكتمال كل الأشياء بالحضور.. ولا شيء آخر.. الهمسة التي تعبر على الأذن، فتخبرني أنك تفكرين الآن بي، فأطلبك لأجدك حاضرة بعدما مرت على روحك قبلي الهمسة ذاتها.. الأغنية التي اعتدتِ على سماعها لا لشيء سوى لأنها تطربني.. العبودية الاختيارية والحرية الدائمة.. كل التناقضات التي نكتشفها بين أرواحنا فلا نسعى لتغييرها، لكننا نعاملها كطفل صغير.. نهذبها عندما يحتاج أمرها إلى تهذيب.. ندللها لأنها قطعة منا، ولا يمكن أن ننكرها أو نقسو عليها .. تلك الغفوة التي ألوذ بها على صدرك فتهدأ أنفاسك حتى لا توقظني، وإن كنت أريدك أن تعلمي أنني أحلم بك وقتها.. النيران التي تشتعل لا لشيء وتنتطفئ بنظرة عين، وكلمة لا

نقولها لكن أرواحنا تسمعها.. الحب أن تكوني ما أنتِ عليه، ولا تحاولي أن تكوني أنا.. الحب لا يطلب كوجبة ديلفيري.. لكنه يأتي ويظل دائما ساخنًا».

هي:

«الحب.. أن أحلم بإغفاءة على كتفك في رحلة عودتنا، وأن تُحدث حولي الفوضى الكافية لأصحو حتى لا يلمح الرجل الجالس في المقعد المواجه روعتي في لحظات الإغفاء وأكون شريكة إحدى ذكرياته.. أن تلمحني في كل طيف امرأة تعانقها عيناك.. أن تعرف كل شيء عن أي شيء.. وأي شيء عن كل شيء.. أن تتركني ولا ترحل.. معادلة سهلة على الأحبة المجاذيب.. صعبة على أولئك الذين يعبرون جسر الحياة دون أن تلمح قلوبهم خيط الضوء الممتد من الأرض حتى السماء.. أولئك الذين لا يدركون أن أيديهم من الممكن أن تلمس النجوم وتحصيها.. أن تكون كل الدنيا.. الحب أن تكون صديقي ولا شيء آخر».

الفهرس

- خمُورجي يروي التاريخ 5
- طفل الثدي الميت 13
- شعرة بيضاء على جدار غرفة نوم الرئيس 19
- سبع أرواح 23
- مع مظلة وصفيحة زبالة 29
- اختبارات تصلح لـ«الحالمين» 37
- إله الشيخ زايد 41
- امرأة تفضل اللون «البني» 45
- بانيو «الغمازة اليمنى» 55
- رجل الحمل 61
- قفزة أخيرة في حضن الموت 69
- لوليتا 75
- ... وأشتهي وصلها 81
- بعد الـ 40 89

- ولد الحلبية 93
- نوافذ تتقن حفظ الذكريات 99
- أصحاب النظارات لا يصلحون للذكريات 105
- موعد مناسب لزيارات الخونة 113
- كُومبارس صامت كان يصلُح لأدوار البطولة 119
- سيارة عجوز تُوزع «الياسمين» على الملائكة 127
- مُسدس لِعبة وثماني رصاصات حية 135
- أجنحة الفراشات 143
- عن الاعتياد والحب 151